نسخة محذوفة الحواشي

اليوم النبوي

نسخة خاصة ببرنامج مهارات الحياة

د. عبد الوهاب الطريري

اليـوم الـنـبـوي

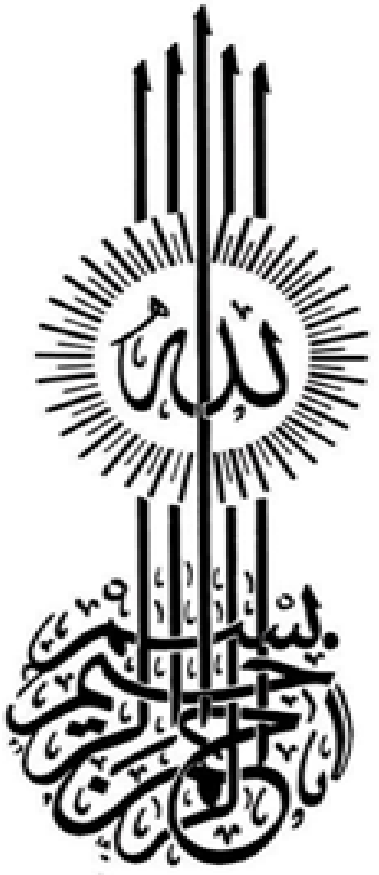

اليـوم النـبـوي

د. عبد الوهاب الطريري

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

أنوار الفجر ٧
الصباح النبوي ١٢
المجلس النبوي ١٦
زيارات الرسول ﷺ ٢٣
يمشي في الأسواق ٢٥
زياراته ﷺ مع أصحابه ٢٧
عيادته المرضىٰ ٢٩
راحة القيلولة ٣٠
إلىٰ قُباء ٣٥
أمسيات الرسول ﷺ ٣٦
والعصر ٤٢
بعد الغروب ٤٦
صلاة العشاء ٥٠
ليالي الرسول ﷺ ٥٢
ناشئة الليل ٥٧
خطوات في سكون الليل ٦٣
إغفاءة السَّحَر ٦٥
قراءة لليوم النبوي ٦٦

أنوار الفجر

يصدَعُ نورُ الفجر ظلمةَ الليل، ويصدَعُ أذانُ بلال ﷺ سكونَ المدينة، ويوافي ذلك رسول الله ﷺ نائمًا؛ ليستريح البدن الشريف ساعة السَّحَر بعد سَبْح طويل من قيام الليل.

فإذا أَذَّنَ بلالٌ ﷺ استيقظ رسول الله ﷺ، وأولُ شيء يفعله أن يتناول سواكه فيستاك به [البخاري: ٢٤٦]، ثم يقول: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور**» [البخاري: ٦٣١٢].

ثم يجيب المؤذِّنَ بمثل ما يقول، فإذا قال: الله أكبر الله أكبر. قال: «**الله أكبر الله**». وإذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله. قال: «**وأنا**». وإذا قال: أشهد أنا محمدًا رسول الله. قال: «**وأنا**». وإذا قال: حيَّ علىٰ الصلاة. قال: «**لا حولَ ولا قوة إلا بالله**». وإذا قال: حيَّ علىٰ الفلاح. قال: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**». وإذا قال: الله أكبر الله أكبر. قال: «**الله أكبر الله أكبر**». وإذا قال: لا إله إلا الله. قال: «**لا إله إلا الله**» [البخاري: ٩١٤].

ثم ينبعث رسول الله ﷺ، فإن كان به حاجة إلىٰ الغُسل اغتسل، وإن كان به حاجة إلىٰ الوضوء توضأ.

وربما قام إلىٰ الصلاة من غير وضوء، فيقال له في ذلك، فيقول: «**تنام عيناي، ولا ينام قلبي**» [البخاري: ١١٤٧].

ثم يصلي ركعتي الفجر؛ فيصلِّي صلاةً خفيفة، حتىٰ يقول القائل: هل قرأ فيها بأم الكتاب [البخاري: ٦١٨]؟ لشدة ما يخفِّفها، يقرأ فيها بعد الفاتحة في الركعة الأولىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، وفي الركعة الثانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وأحيانًا يقرأ في الركعة الأولىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا...﴾ [البقرة: ١٣٦]، وفي الثانية: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ...﴾ [آل عمران: ٦٤] [مسلم: ٧٢٦].

فإذا فرغ من صلاته؛ فإن كانت زوجته مستيقظة تحدَّث معها حديث المؤانسة والإسعاد، فما ظنك بزوجة محبة تستفتح أنوار يومها بحديث المودة من زوجها! وإن كانت نائمة اضطجع علىٰ شقِّه الأيمن حتىٰ يحين موعد إقامة الصلاة [البخاري: ١١٦١].

فإذا رأىٰ بلالٌ رضي الله عنه أن الناس قد اجتمعوا في المسجد أتىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ، فنادىٰ: الصلاة يا رسول الله [النسائي: ٦٨٦].

فيخرج رسول الله ﷺ إليهم، فإذا خرج من بيته رفع طَرْفه إلىٰ السماء، وقال: «**بسم الله، توكلت علىٰ الله، اللهم إني أعوذُ بك أن أضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أَزِلَّ أو أُزَلَّ، أو أَظْلِمَ أو أُظْلَمَ، أو أجْهَلَ أو يُجْهَلَ عليَّ**» [أبو داود: ٥٠٩٤].

فإذا دخل المسجد قال: «**بسم الله، والسلامُ علىٰ رسول الله، اللهمَّ اغفرْ لي ذنوبي، وافتحْ لي أبواب رحمتك، أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وبسلطانه القديم، من الشيطان الرَّجِيم**» [أبو داود: ٤٦٦].

فإذا رآه بلالٌ داخلًا المسجد أقام الصلاة [مسلم: ٦٠٦]، وإذا رآه أصحابُه قاموا إلىٰ الصلاة [البخاري: ٦٣٧].

وربما خرج ورأسُه ينْطِفُ[١] ماءً من أثر الغُسل، وربما خرج ووقف في مصلاه، ثم تذكَّر أنه جُنُبٌ ولم يغتسل، فقال لهم: «**مكانكم**». ثم رجع إلىٰ بيته فاغتسل، ثم خرج إليهم ورأسه يَقْطُرُ ماءً [**البخاري: ٩٦٣٦**].

فلم يكن ﷺ يتكتَّم هذه الأمور ويتحرَّجها، وإنما كان بشرًا من البشر، يرىٰ الناس في حياته وقائع حياتهم.

فإذا قام في مصلَّاه قال لأصحابه: «**سَوُّوا صفوفَكُك وتراصُّوا؛ فإن تسوية الصفوف من تمام الصلاة**» [**البخاري: ٧١٩**].

ثم يكبِّر تكبيرة الإحرام، فيسكت إسكاته بقدر ما يقول: «**اللهم باعد بيني وبين خطاياي، كما باعدتَ بين المشرق والمغرب، اللهم نقِّني من خطاياي كما يُنقَّىٰ الثوبُ الأبيضُ من الدَّنَسِ، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد**» [**البخاري: ٧٤٤**].

ثم يجهر بالفاتحة، فيقرأ قراءة مفصَّلة مترسِّلة، يُقطِّع قراءته آيةً آيةً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. ثم يقف.. ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]. ثم يقف.. ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]. وكانت قراءتُه مدًّا، يمدُّ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، ويمدُّ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ [**أبو داود: ٤٠٠١**]، ويقرأُ قرآنَ الفجر، ويطيل القراءة، فيقرأ في صلاته ما بين الستين إلىٰ مائة آية [**البخاري: ٥٤١**]، فإن كان يوم جمعة قرأ في الركعة الأولىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة: ١، ٢]، وفي الركعة الثانية: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] [**البخاري: ٨٩١**].

وربما قَنَتَ أحيانًا بعد الركوع من الركعة الثانية في النوازل تنزل بالمسلين، فيدعو ويستنزل الفرجَ والنصرَ [**البخاري: ٤٥٦٠**].

---

(١) أي: يقطر.

فإذا أتمَّ صلاته وسلَّم منها قال وهو في مكانه ووجهُه تِلقاء القِبلة: «**أَسْتغفرُ الله، أستغفر الله، أستغفر الله، اللهم أنتَ السلامُ، ومنك السلامُ، تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام**» [مسلم: ٥٩١].

ثم ينصرف عن يمينه، وربما انصرف عن يساره، فأول ما يسمعُ منه أصحابُه إذا أقبل عليهم بوجهه قوله: «**ربِّ قِني عذابَكَ يومَ تبعثُ عبادَك**» [البخاري: ٨٥٢].

ثم يقول: «**لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو علىٰ كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبدُ إلا إيَّاه، له النعمةُ، وله الفضلُ، وله الثناءُ الحسنُ، لا إله إلا الله، مخلصين له الدينَ، ولو كره الكافرونَ، اللهمَّ لا مانع لما أعطيتَ، ولا مُعْطِيَ لما منعتَ، ولا ينفعُ ذات الجِدِّ**[(١)] **منك الجَدُّ**» [البخاري: ٨٤٤]. ثم يسبِّح الله، ويحمده ويكبِّره [البخاري: ٨٤٣] ثم يذكره بجوامع الذِّكر، التي يستقبل بها صباح يومه، ومنها:

«**أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وحدهُ لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو علىٰ كل شيءٍ قديرٌ، ربِّ أسألُك خيرَ ما في هذا اليوم، وخيرَ ما بعده، وأعوذُ بك من شرِّ ما في هذا اليوم، وشرِّ ما بعده، ربِّ أعوذ بك من الكسلِ، وسوءِ الكِبَر، ربِّ أعوذُ بك من عذابٍ في النارِ، وعذابٍ في القبرِ**». وإذا أمسىٰ قالها أيضًا: «**أمسينا وأمسىٰ المُلْكُ لله**» [مسلم: ٢٧٢٣].

«**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي،**

(١) أي: لا ينفع ذا الغِنىٰ عنك غناه، وإنما ينفعه الإيمان والطاعة.

اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ مِنْ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تحتي»[(١)]. ولم يكن يدعها حين يصبح وحين يُمسي» [أبو داود: ٥٠٧٤].

«**اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَدَنِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي سَمْعِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَصَرِي، لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكُفْرِ وَالفَقْرِ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ**». يعيدها ثلاثًا إذا أصبح وإذا أمسى [أبو داود: ٥٠٩٠].

ويكثر الاستغفار، فيستغفر الله كل غداة مائة مرة [مسلم: ٢٧٠٢].

ويأتي في أثناء ذلك خدُم المدينة، بأيديهم الأقداح فيها الماء؛ يتبرَّكون بوضع رسول الله ﷺ يده المباركة في آنيتهم، فما يُؤتىٰ بإناء إلا غمس فيه يده، وربما أتوا إليه في اليوم الشديد البرد، فيضع يده في آنيتهم [مسلم: ٢٣٢٤].

(١) يعني: الخسف.

الصباح النبوي

ثم تتقارب أطراف الصفوف، فيطيف أصحابُ رسول الله ﷺ به وهو جالس في مصلَّاه، مقبلٌ بوجهه إليهم، فيُسْفِرُ لهم ضوءُ الصباح عن ضياء وجه رسول الله ﷺ، فربما بدأهم بموعظة، كما في حديث العِرباض بن سَارية رضي الله عنه قال: «وعظنا رسولُ الله ﷺ يومًا بعد صلاة الفجر موعظةٍ بليغةً، ذرفَتْ منها العيون، ووجِلَتْ منها القلوب، فقال رجلٌ: إن هذه موعظة مُوَدِّع؛ فماذا تعهدُ إلينا يا رسول الله؟ قال: «**أوصيكم بتقوىٰ الله، والسمع والطاعة، وإن عبدٌ حبشيٌّ، فإنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإنها ضلالةٌ، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنَّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديِّين من بعدي، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذ**» [أبو داود: ٤٦٠٧].

ولم يكن النبيُّ ﷺ يكثر عليهم هذه العِظات، وإنما كان يتخوَّلهم بها ويتعاهدهم من غير إملال [البخاري: ٦٨].

وقد يتحدَّث إليهم، كما صلىٰ مرة الصبح، ثم أقبل علىٰ الناس، فقال: «**بينما رجلٌ يسوقُ بقرةً له قد حمل عليها، التفتت إليه البقرة فقالت: إني لم أُخْلقْ لهذا، ولكني إنما خُلقت للحرث؟!**». فقال الناس: سبحان الله -تعجُّبًا وفزعًا-: أبقرةٌ تكلَّمُ؟! فقال رسولُ الله ﷺ: «**فإني أُومِنُ به وأبو بكر وعمر**».

ثم قال: «**بينا راعٍ في غنمه عدا عليه الذئب، فأخذ منها شاة، فطلبه الراعي حتىٰ استنقذها منه، فقالتفت إليه الذئبُ فقال له: مَن لها يوم السَّبُعِ، يوم ليس لها راعٍ غيري؟!**». فقال الناسُ: سبحان الله. فقال رسولُ الله ﷺ: «**فإني أُومِنُ به أنا وأبو بكر وعمر**» [البخاري: ٣٦٦٣]. ولم يكن أبو بكر وعمر حاضرين حينها، ولكن شهد النبيُّ ﷺ بإيمانهما؛ ليقينه منه، رضي الله عنهما.

وربما أقبل عليهم إذا اجتمعوا حوله فقال لهم: «**هل فيكم مريضٌ نعودُه؟**» فإن قالوا: لا. قال: «**هل فيكم جنازة نشهدها؟**». فإن قالوا: لا. قال: «**مَن رأىٰ منكم رؤيا، فليَقُصَّها عليَّ أَعْبُرْها؟**». فيقصُّون عليه رُؤاهم، فيعبُرُنا لهم، أو يقول لهم ما شاء الله أن يقول [**ابن عساكر: ٣٩/ ١١٤**].

ومن ذلك حديث عبد الله بن سلَام رضي الله عنه قال: رأيتُ رؤيا علىٰ عهد النبي ﷺ، رأيتُ كأنِّي في رَوْضَة -ذكر من سعتِها وخَضْرَتِها- وسطَها عمودٌ من حديد، أسفلُهُ في الأرض، وأعلاهُ في السماء، في أعلاه عُروةٌ، فقيل لي: ارْقَ. قلتُ: لا استطيع. فأتاني مِنْصَفٌ[1] فرفع ثيابي من خلفي، فرَقِيتُ حتىٰ كنتُ في أعلاها، فأخذتُ بالعُروة، فقيل له: استمسك. فاستيقظتُ وإنها لفي يدي، فقصصتُها علىٰ النبي ﷺ. قال: «**تلك الروضةُ: الإسلام، وذلك العمودُ: عمودُ الإسلام، وتلك العُروة: عُروةُ الوثقىٰ، فأنت علىٰ الإسلام حتىٰ تموتَ**» [البخاري: ٣٨١٣].

وقال مرَّة لأصحابه رضي الله عنهم: «**مَن رأىٰ منكم رؤيا فليَقُصَّها؛ أعبُرْها له**». فقال رجلٌ: يا رسول الله إني أرىٰ الليلة في المنام ظُلَّةً تنظيف السمنَ والعسل، فأرىٰ الناس يتكفَّفون منها بأيديهم، فالمستكثر والمستقلُّ، وأرىٰ

(١) أي: خادم.

سببًا واصلًا من السماء إلىٰ الأرض، فأراك أخذت به فعلوتَ، ثم أخذ به رجلٌ من بعدك فعلَا، ثم أخذ به رجلٌ آخرُ فعلا، ثم أخ به رجلٌ آخر فانقطع به، ثم وصل له فعلا.

قال أبو بكر: يا رسول الله، بأبي أنت، والله لتدعني فلأعبرنها. قال رسول الله ﷺ: «**اعْبُرْهَا**». قال أبو بكر: أما الظُّلَّةُ، فظُلَّةُ الإسلام، وأما الذي ينظف من السمن والعسل، فالقرآن، حلاوته ولينه، وأما ما يتكففُ الناس من ذلك، فالمستكثُر من القرآن والمستقلُّ، وأما السبب الواصل من السماء إلىٰ الأرض، فالحق الذي أنت عليه، تأخذ به فيُعْليكَ الله بم، ثم يأخذ به رجلٌ من بعدك، فيعلو به، ثم يأخذ به رجلٌ آخرُ فيعلو به، ثم يأخذ به رجلٌ آخر فينقطع به، ثم يوصل له فيعلو به، فأخبرني يا رسول الله بأبي أنت، أصبتُ أم أخطأت؟ قال رسول الله ﷺ: «**أصبتَ بعضًا، وأخطأتَ بعضًا**» قال: فوالله يا رسول الله، لتُحدِّثنِّي ما الذي أخطأتُ؟ قال: «**لا تُقسمْ**» [البخاري: ٧٠٤٦].

ويلاحظ أن رُؤىٰ الصحابة رضي الله عنهم التي كانوا يقصُّونها علىٰ النبي ﷺ تفيضُ بهمِّهم الأكبر وقضيتهم الأولىٰ، وهو دينهم ونبيهم، فهم يعيشونه جهدًا وجهادًا في يقظتهم، ورؤىٰ في منامهم، فيا لله! أي نفوس تلك التي كانت تَطِيفُ برسول الله ﷺ، فيمتد همُّها به من يقظتها إلىٰ منامها وأحلامها!

وربما حدَّثهم ﷺ برؤيا رآها هو، فيقصُّها عليهم ويعبُرها لهم رضي الله عنهم؛ كما في حديث سمرة رضي الله عنه قال: سَأَلَنا رسول الله ﷺ يومًا، فقال: «**هل رأىٰ أحدٌ منكم رؤيا؟**» قلنا: لا. قال: «**لكنِّي رأيتُ الليلةُ رجلين آتياني، فأخذا بيدي، فأخرجاني إلىٰ الأرض المقدَّسة . . .**». ثم ذكر حديث الرُّؤيا

الطويل، وفيه ذكر بعض أحوال المعذَّبين، وما يعذَّبونَ عليه، وذكر بعض الأحوال الآخرة [البخاري: ١٣٨٦].

ويتحدَّث الصحابةُ في هذا المجلس بين يدي النبي ﷺ، فيشاركهم الحديثَ والاستماع، فربما تحدَّثوا عن حياتهم في الجاهلية، وما كانوا يقعون فيه من أُحْمُوقات الجهل التي تَبَدَّىٰ لهم عَوَارُها بعد أن منَّ الله عليهم بالإسلام، فإذا ذكروها ضحكوا من جهلهم في الجاهلية، ويتبسَّم رسول الله ﷺ، وهو الذي كان ضحكه تبسُّمًا، ولا يزال صلىٰ الله وآله وسلم في مجلسه حتىٰ تطلع الشمس حسناء [مسلم: ٢٣٢٢].

ثم يقول رسول الله ﷺ إلىٰ حُجر نسائه، فإذا دخل البيتَ قال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَوْلِجِ وَخَيْرَ الْمَخْرَجِ باسْمِ اللَّهِ وَلجْنا، وباسْمِ اللَّهِ خَرَجْنا، وَعَلىٰ اللَّهِ رَبِّنا تَوَكَّلْنا**» [أبو داود: ٥٠٩٨].

وأول شيء يبدأ به إذا دخل بيته السِّواك، يطيِّب به فمه المطَّيب، ويسلِّم علىٰ أهله قائلًا: «**السلامُ عليكم، كيف أنتم يا أهلَ البيت؟**».

ويطوف علىٰ نسائه، يدخل علىٰ كل واحدة في حُجرتها، يسلِّم عليهنَّ ويدعو لهنَّ، ولا يطيل المُكث [البخاري: ٤٧٩٤].

فربما دخل علىٰ إحداهن وهي في مصلَّاها وخرج وهي علىٰ حالها، كما دخل علىٰ جُوَيْرِيةَ رضي الله عنها وهي في مصلَّاها تذكر الله، وخرج وهي علىٰ حالها من الذكر [مسلم: ٢٧٢٦].

وربما سألَ عن الطعام، فقال: «**هل عندكم شيء؟**». فإن كان ثمةَ طعام قُرِّب إليه، وغالبًا ما يكون طعامًا خفيفًا، كالتمر والحَيْس والأَقِط، أو شرابًا، كاللبن أو النَّبيذ، ونحو ذلك، وربما سأل فيقولون: يا رسول الله، ما عندنا شيء. فيقول: «**فإني إذًا صائم**» [البخاري: ١٤٩٤].

المجلس النبوي

فإذا أتم ﷺ طوافَه علىٰ نسائه عاد إلىٰ المسجد، فإذا دخله صلَّىٰ تحية المسجد عند سارية تسمَّىٰ: سارية المهاجرين، وهي متوسطة في الروضة الشريفة، وكان يتحرَّىٰ الصلاة عندها [**البخاري**: ٥٠٢].

ثم يجلس شرقي المسجد في الروضة الشريفة، مستندًا إلىٰ حُجرة عائشة رضي الله عنها، ويجتمع إليه أصحابه، وكان هذا اللقاء معهودًا، بحيث إن مَن أراد النبي ﷺ في هذا الوقت، فإنه يأتي إليه في المسجد، وقد يقلُّ الصحابةُ حولَه أو يكثرون، بحسب فراغهم وظروف حيواتهم، فإن كانوا قليلًا تحلَّقوا حوله، وإن كانوا كثيرًا جلسوا سِمَاطَيْن عن جَنْبَتَيْهِ[(١)]، حتىٰ يصل إليه الوافد، ويدنو منه السائل [**أبو داود**: ٤٦٩٨].

فإذا جلس إلىٰ أصحابه تحدَّث إليهم، وكان أفصح خلق الله كلامًا، وأعذبهم حديثًا، وأبينهم أداءً، ليس كلامه هذًّا مسرعًا، ولا بطيئًا متقطعًا، وإنما هو فصلٌ بيِّنٌ، ولو شاد العادُّ أن يعدَّه لأحصاه، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «ما كان رسول الله ﷺ يَسْرِدُ الحديثَ كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بيِّنٍ فصلٍ، يحفظه مَن جلس إليه» [**البخاري**: ٣٥٦٨].

وغالبًا ما يأخذ حديثه طابع الحوار المبدوء بالتساؤل: فربما ابتدأهم بالسؤال ليسألوه، كقوله: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**». قالوا: بلىٰ

(١) أي: صفين علىٰ يمينه ويساره.

يا رسول الله. قال: «**الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وشهادةُ الزور**» [البخاري: ٢٦٥٤].

وربما سألهم ليلفت أبصارهم إلىٰ معنىً أعظم من المتبادر لهم، كقوله: «**أتدرون مَنِ المُفلِسُ؟**». قالوا: المُفلسُ فينا مَن لا درهم له ولا متاع. فقال: «**إن المُفلِسَ من أمتي مَن يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتمَ هذا، وقذف هذا، وأكلَ مال هذا، وسفكَ دم هذا، وضَرَب هذا؛ فيُعطىٰ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيت حسناتُه قبل أن يُقضىٰ ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار**» [مسلم: ٢٥٨١].

وربما استثار أذهانهم بالسؤال ليُجيبوه، كام بدأهم مرة بالسؤال، وقد أُتي إليه بجُمَّار نَخْل، فقال: «**أخبروني بشجرة تشبه الرجل المسلم، لا يَتَحَاتُّ ورقُها، تُؤتي أُكُلها كل حين؟**». فوقعوا في شجر البَوادي، يَعُدُّونها عليه، وهو يقول في كلٍّ: «**لا . . لا**». ووقع في نفس عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما -وكان عاشر عشرة هو أصغرهم سنًّا- أنها النخلة، فنظر، فإذا في المجلس أبو بكر وعمر، فاستحيا أن يقولها، فقال النبيُّ ﷺ: «**هي النخلة**» [البخاري: ٦١].

وكان يكرِّر بعض كلامه ثلاثًا؛ ليُعقّل عنه أو ليبيِّن أهميته، وربما زاد مبالغة في الاهتمام، كقوله وهو يذكر الكبائر: «**ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور**». فما زال يكرِّرها، حتىٰ قالوا: ليته سكت [البخاري: ٢٦٥٤].

وربما بدأهم بسؤال مفاجئ لينتهي بهم إلىٰ نتيجة مفاجئة، كما بدأهم قائلًا: «**مَن أصبح منكم اليوم صائمًا؟**». ففاجئهم السؤال؛ إذ لم يستعدوا له، ولو عرفوا أنه سيسألهم لصاموا كلهم، فسكتوا جميعًا، وأجاب أبو بكر قائلًا: أنا يا رسولَ الله. فقال: «**مَن عاد منكم اليوم مريضًا؟**». فسكتوا،

وأجاب أبو بكر قائلًا: أنا يا رسول الله. فقال: «**مَن تَبِعَ منكم اليوم جنازةً؟**». فسكتوا، وقال أبو بكر: أنا يا رسول الله. فقال: «**مَن أطعمَ منكم اليوم مسكينًا؟**». فسكتوا، وقال أبو بكر: أنا يا رسول الله. فقال: «**ما اجتمعت هذه الأربع في امرئ في يوم إلا دخل الجنة**» [مسلم: ١٠٢٨].

وربما استخدم وسيلة الإيضاح، وهو يتحدَّث، كما حدَّث مرة عن رفع الأمانة، فقال: «**ينام الرجلُ النومةَ، فتُقبضُ الأمانةُ من قلبه، فيبقىٰ أثرُها مثل الوَكْتِ**[١]**، ثم ينام النومةَ، فتُقبضُ الأمانةُ من قلبه، فيظل أثرُها مثل المَجْلِ**[٢]**، كمَجْرٍ دَحْرَجتَه علىٰ رِجْلِك فنفِطَ، فترَاه مُنْتَبِرًا**[٣] **وليس فيه شيء**» [البخاري: ٦٤٩٧]. ثم أخذ حصاة فدَحْرَجها علىٰ قدمه.

وربما استعان بالرسم التوضيحي، كما خطَّ علىٰ الأرض خطًّا مربعًا، وخطَّ خطًّا في الوَسَط خارجًا منه، وخط خُطَطًا صغارًا إلىٰ هذا الذي في الوَسَط من جانبه الذي في الوَسَط، ثم قال: «**هذا الإنسانُ، وهذا أجلُه مُحيطٌ به، وهذا الذي هو خارجٌ أملُه، يتعاطَىٰ الأمل، والأجلُ يخْتَلِجُه دون ذلك، وهذه الخُطَطُ الصِّغارُ الأعراضُ، فإن أخطاهُ هذا نهشهُ هذا، وإن أخطاهُ هذا نهشهُ هذ**» [البخاري: ٦٤١٧].

لقد كان هذا المجلس مجلس علم ووعظ، ولكن لم تكن المواعظ ولا التعليم تتم بأسلوب إلقائي أحادي الاتجاه، وإنما بأسلوب حِواري يعتمد إشراك المتعلِّم في عملية التعليم، ويعتمد الحوار الذي يتيح النمو العقلي والفكري للمتعلِّم.

---

(١) الوكت: سواد في اللون يسير من أثر الناء ونحوها.

(٢) المجل: أثر العمل في الكف، وهو أثر دائم لا يكاد يزول.

(٣) المنتبر: الوَرِم المملوء ماءً.

ومما كان يُعمِّر هذا المجلس الاستغفار الكثير؛ فقد كان الصحابة يلحظون عدم فتور النبي ﷺ عن الاستغفار والتوبة، وربما عدُّوا له في المجل الواحد مائة مرة قبل أن يقوم: «**ربِّ اغفرْ لي وتُبْ عليَّ، إنك أنت التواب الغفور**» [أبو داود: ١٥١٦].

وفي مجلسه يُؤْتَىٰ بصبيان المدينة، فيدعو لهم، ويحنِّكهم، ويُبرِّك عليهم [البخاري: ٣٩٠٩].

ومن ذلك: أن أبا أُسيد رضي الله عنه أَتَىٰ بابنه المُنذر إلىٰ رسول الله ﷺ حين وُلد، فوضعه النبيُّ ﷺ علىٰ فَخِذه، وأبو أُسيد جالس، فلَهِي النبيُّ ﷺ بشيء من يديه، فأَمَرَ أبو أُسيد بابنه فاحتمل من علىٰ فَخِذ رسول الله ﷺ، فأقبلوه، فاستفاق رسول الله ﷺ فقال: «**أين الصبيُّ؟**». فقال أبو أُسيد: أقلبناه يا رسول الله. فقال: «**ما اسمه؟**». قال: فلانٌ يا رسول الله. قال: «**لا، ولكن أسْمِهِ: المنذرَ**». فسمَّاه يومئذ: المنذر [البخاري: ٦١٩١].

ويُؤتىٰ في مجلسه ببَواكير ثمار النخيل؛ حيث كان التمر فاكهة أهل المدينة وقوتهم وغذاءهم، فكانوا يفرحون إذا رَأَوْا أول الثمرة، ويأتون به إلىٰ النبيِّ ﷺ، فإذا أخذه قال: «**اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مَدِينتنا، وبارك لنا في صاعِنا، وبارك لنا في مُدِّنا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيُّك، وإني عبدُك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه**». ثم يدعو أصغر مَن يحضره من الولدان، فيعطيه ذلك الثمر [مسلم: ١٣٧٣].

وكان في هذا المجلس فسحة للطُّرْفَة والمُزاح الجميل، ولم يكن وقار المجلس النبوي ولا مَهابة محيَّاه صلىٰ الله عليه آله وسلم مما يحجز أصحابه من عفوية الحياة، فها هو ﷺ يحدِّث أصحابه، وعنده رجلٌ من أهل البادية فيقول: «**إن رجلًا من أهل الجنة استأذن ربَّه من الزَّرْع،**

فقال الله له: ألستَ فيما شئتَ؟! فقال: بلىٰ يا ربِّ، ولكني أُحِبُّ أن أزرع. قال: فبذر، فبادر الطرف نباتُه واستواؤُهُ واستحصادُهُ، فكان أمثالَ الجبال، فيقول الله: دُونَك يا ابن آدمَ، فإنه لا يُشبِعُك شيءٌ!». فلما فرغ النبي ﷺ من حديثه قال الأعرابي: يا رسول الله، والله لا تجده إلا مهاجريًّا أو أنصاريًّا؛ فإنهم أصحاب زرع، وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع. فضحك مَن في المجلس، وضحك النبيُّ ﷺ [**البخاري**: ٢٣٤٨].

ويبدو أن هذا المجلس هو مجلس استقبال القادمين من الوفود؛ فإن المسافرين عادة يبيتون خارج المدينة، ثم يدخلونها ضحىٰ، فيلقون النبي ﷺ في هذا المجلس.

ومن ذلك: وفد المُضَرِيِّين، وقد أتوا إلىٰ النبي ﷺ في صدر النهار، فرأىٰ ما بهم من الفقر والفاقة، فَتَمَعَّر وجهُه ألمًا لحاهم، ثم خطبَ الناس، وحثَّ علىٰ الصدقة، حتىٰ اجتمع عنده كَوْمان من طعام وثياب [**مسلم**: ١٠١٧].

ويغلب علىٰ الظن أنه المجلس الذي أتىٰ فيه جبرائيلُ عليه السلام في صورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه أحدٌ فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة [**البخاري**: ٥٠].

وأنه المجلس الذي أتىٰ فيه ضِمامُ بن ثَعْلبة أخو بني سعد بن بكر رضي الله عنه، فأناخ جملة في المسجد، ثم قال للنبي ﷺ: ابنَ عبد المطلب؟ قال: «**قد أجبتك**». قال: إني سائلُك، فمشدِّد عليك في المسألة، فلا تجد عليَّ في نفسك. قال: «**سَلْ عَمَّا بدا لك**». فسأله عن أركان الإسلام، ثم قال: والذي بعثك بالحق، لا أزيد عليهن ولا أنقص. فلما ولَّىٰ. قال النبي ﷺ: «**فَقِهَ الرجلُ، لئن صدق ليدخلنَّ الجنة**» [**البخاري**: ٦٣].

وكان الصحابة ﷺ يتناوبون الحضور في هذا المجلس النبوي، كما في حديث عمر ﷺ قال: كنتُ أنا وجارٌ لي من الأنصار في عوالي المدينة، وكنا نتناوبُ النزولَ علىٰ رسول الله ﷺ، ينزلُ يومًا وأنزلُ يومًا، فإذا نزلتُ جئتُه بخير ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك [البخاري: ٨٩].

وكان رسول الله ﷺ يجلس في هذا المجلس مع أصحابه كأحدهم، ليس له شارة تميزه عنهم، فيجيء الغريبُ فلا يعرفه من بينهم، وربما سأل: أيكم ابنُ عبد المطلب؟ فلا يجدون ما يميزون به رسول الله ﷺ، إلا بهاؤه، فيقولون: هو هذا الأبيض المتكئ. فلما رأىٰ الصحابة ذلك، أشاروا علىٰ النبي ﷺ أن يعملوا له دَكَّةً من الطين؛ حتىٰ يعرفه القادم، فأذن لهم، وكان ذلك في آخر حياته، عام الوفود، سنة تسع [أبو داود: ٤٦٩٨].

وكان ﷺ يُقَسِّم بِشْرَه وإقباله في مجلسه بين أصحابه، حتىٰ يتفرقوا عنه، وكلٌّ يظن أنه أكثرهم حُظْوَة عنده.

وربما أُهدي للنبي ﷺ طعامٌ وهو مع أصحابه، فيأكلون جميعًا، قال سَمرة بن جُندب ﷺ: بينما نحن عند النبي ﷺ إذ أُتي بقصعة فيها ثَرِيدٌ، قال: فأكل، وأكل القومُ، فلم يزل القومُ يتداولونها إلىٰ قريب من الظهر؛ يأكل كل قوم ثم يقومون، ويجيء قوم فيتعاقبونه. فقال له رجل: هل كانت تُمَدُّ بطعام؟ قال: أما من الأرض فلا، إلا أن تكون كانت تُمَدُّ من السماء [الترمذي: ٣٦٢٥].

وأُهدي له ﷺ شاةٌ، والطعام يومئذ قليل، فقال لأهله: «**أَصْلِحوا هذه الشاة، وأنظروا إلىٰ هذا الخبز، فاثْرِدوا واغرفوا عليه**». وكانت له صلىٰ الله عليه وآله وسلم قَصْعَةٌ يقال لها: الغَرَاءُ يحملها أربعة رجال، فلما أصبحوا وسجدوا الضحىٰ، أُتي بتلك القصعة، فالتفُّوا عليها، فلما كثروا جَثَا

رسول الله ﷺ، فقال أعرابي: ما هذه الجِلْسَة؟ قال: «**إن الله عزَّ وجلَّ جعلني عبدًا كريمًا، ولم يجعلني جبارًا عنيدًا، كلُوا من جوانبها، ودَعُوا ذِرْوَتَها، يُبارك فيها**». ثم قال: «**خذوا وكلوا، فوالَّذي نفسُ محمدٍ بيده، لتُفْتَحَنَّ عليكم فارسُ والرومُ، حتىٰ يكثر الطعام، فلا يُذكرَ عليه اسم الله** ﷻ» [أبو داود: ٣٧٧٣].

ويطول هذا المجلس النبوي ويقصُر، بحسب الحال، وما يكون فيه من شأن، حتىٰ إذا تعالىٰ النهارُ قام ﷺ، ولم يكن يقوم من مجلسه إلا قال: «**سبحانك اللهمَّ ربي وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرُك وأتوبُ إليك**» [أبو داود: ٤٨٥٧].

وقلَّما يقوم من مجلس حتىٰ يدعو بهذه الدعوات لأصحابه: «**اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحولُ به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغُنا به جنَّتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا، اللهم متِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، وأجعله الوارث منا، وأجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا، وانصرنا علىٰ من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلِّط علينا من لا يرحمنا**» [الترمذي: ٣٥٠٢]. ثم يتفرق الصحابة إلىٰ أعمالهم أو إلىٰ بيوتهم؛ للقيلولة قبل الظهر.

زيارات الرسول ﷺ

وربما ذهب النبي ﷺ في بعض ضَحَوات الأيام لزيارة من يرغب زيارته من قرابته أو أصحابه.

ومن ذلك ذهابه إلىٰ بيت فاطمة رضي الله عنها؛ ليلقىٰ ابنه الحسن بن علي عليهما السلام، فوقف في فناء البيت ونادىٰ: «**أَثَمَّ لُكَعْ، أَثَمَّ لُكَعْ**». حتىٰ خرج له الحسن وهو صبي يسعىٰ، فالتزمه وقبَّله، وهو يقول: «**اللهمَّ إني أُحِبُّهُ، فأَحِبَّهُ، وأَحِبَّ مَن يُحبُّهُ**» [البخاري: ٢١٢٢].

وذهب ذات مرة إلىٰ بيت فاطمة رضي الله عنها، فسألها عن زوجها علي رضي الله عنه، قائلًا: «**أين ابنُ عَمِّك؟**». فقالت: كان بيني وبسنه شيء فخرج. فأرسل يبحث عنه، فقيل له: هو نائم في المسجد. فأتىٰ إليه، وقد سقط رداؤُه عن جنبه، وعَلِقَ به التراب، فجعل يمسح عنه التراب، ويقول: «**قم أبا التراب، قم أبا التراب**» [البخاري: ٤٤١].

ومن ذلك زيارته لأصحابه رضي الله عنهم، وقد كان يأتي ضعفاء المسلمين، ويزورهم، ويعودُ مرضاهم، ويجيب دعوتهم، ويذهب وحده أحيانًا.

ومن ذلك إجابته دعوة مُلَيكة جدة أنس بن مالك رضي الله عنها؛ فقد دعت رسول الله ﷺ لطعام صنعته فأكل منه، ثم قال: «**قوموا فأصلِّي لكم**». قال أنس: فقمت إلىٰ حَصِير لنا قد اسْودَّ من طول ما لُبِسَ، فنضحته بماء، فقام عليه رسول الله ﷺ، وصففت أنا واليتم وراءه، والعجوز من ورائنا، فصلىٰ لنا رسول الله ﷺ كرعتين ثم انصرف [البخاري: ٣٨٠].

وربما ذهب ومعه بعض أهل بيته؛ فعن أنس رضي الله عنه، أن حارًا لرسول الله ﷺ فارسيًّا، كان طيب المَرَق، وكانت مرقته أطيب شيء ريحًا، فصنع لرسول الله ﷺ ذات يوم، ثم جاء يدعوه، فقال ﷺ: «**وعائشة معي**». فقال: لا. فقال رسولُ الله ﷺ: «**لا**». فعاد يدعوه، فقال رسول الله ﷺ: «**وهذه معي**». قال: لا. قال رسول الله ﷺ: «**لا**». ثم عاد يدعوه، فقال رسول الله ﷺ: «**وهذه**» قال: نعم. في الثالثة، فقاما يتدافعان حتىٰ أتيا منزله [**مسلم**: ٢٠٣٧].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن خيَّاطًا دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس: فذهبتُ مع رسول الله ﷺ إلىٰ ذلك الطعام، فقرَّبَ إلىٰ رسول الله ﷺ خبزًا من شعير ومرقًا فيه دُبَّاءُ وقَدِيدٌ[(١)]، وأقبل علىٰ عمله، قال: فجعل رسول الله ﷺ يأكل من ذلك الدُّبَّاء ويعجبه، ورأيته يتتبَّع الدُّبَّاء من حول الصحفة، فلما رأيت ذلك جعلت ألقيه إليه ولا أطعمه، فلم أزل أحبُّ الدُّبَّاء من يومئذ [**البخاري**: ٢٠٩٢].

وربما ذهب إلىٰ الدعوة هو وبعض أصحابه.

(١) الدُّبَّاء: القرع. والقديد: اللحم المملح المجفف.

يمشي في الأسواق

وكان ﷺ إذا مشىٰ يتقلع ويتكفأ، كأنما ينحدر من صَبَب[١]، وإذا التفت التفت جميعًا، وكان إذا مشىٰ معه أصحابه مشوا أمامه وحوله، ولم يكونوا يتبعونه من خلفه، ولم يطأ عقبه رجلان [البخاري: ٣٥٦١].

وكان يبتسم لكل من يلقاه، قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: «ما لقيني رسول الله ﷺ إلا تبسم في وجهي» [البخاري: ٣٠٣٥].

وقال عبد الله بن الحارث بن جَزْء رضي الله عنه: «ما رأيتُ أحدًا كان أكثرَ تَبَسُّمًا من رسول الله ﷺ» [الترمذي: ٣٦٤١].

وكان إذا مرَّ بصبيان سلَّم عليهم، ومسح علىٰ وجوههم، قال جابر بن سمرة رضي الله عنه: خرج النبيُّ ﷺ، وخرجتُ معه، فاستقبله وِلدَانٌ، فجعل يمسح خَدَّيْ أحدهم واحدًا واحدًا، وأما أنا فمسح خدِّي، فوجدتُ ليده بردًا وريحًا، كأنما أخرجها من جُؤْنَةِ عطَّار [البخاري: ٦٢٤٧].

ومرَّ في المسجد يومًا، وعصبةٌ من النساء قعودٌ، فأَلْوَىٰ بيده[٢] إليهنَّ بالسَّلام [أبو داود: ٥٢٠٤].

وكان إذا لقي الرجل من أصحابه مسحه ودعا له [النسائي: ٢٦٧].

---

(١) أي: يرفع رجليه من الأرض بقوة، ويميل إلىٰ الأمام، والمقصود: يمشي بتواضع، لا بخيلاء.

(٢) أي: أشار.

وكان يقف لَمن يستوقفه في الطريق، وربما استوقفته الجارية والمرأة، فيقف لها، حدَّث عَدِيُّ بن حاتم الطائي رضي الله عنه عن أول لُقياه النبيَّ ﷺ، فقال: بينا أنا أمشي معه، إذ نادتهُ امرأةٌ وغلامٌ معها: يا رسول الله، إنَّ لَنا إليك حاجةً. فخلوا به قائمًا معهما حتىٰ أَوَيْتُ له من طول القيام، فلت في نفسي: أشهدُ أنك بريءٌ من ديني ودينِ النُّعمان بن المنذر، وأنك لو كنت مَلِكًا لم يقُم معه صبيٌّ وامرأة طول ما رأىٰ. فقذف الله في قلبي له حُبًّا [الأحاديث الطوال للطبراني: ١].

وكان يمشي بعفوية وتدفق، بعيدًا عن التزمَّت والتواقر المتكلف؛ فقد مرَّ مرَّة في طريقه بشاب يَسْلُخُ شاه، ولم يكن يحسب السَّلخَ، فحاد إليه، فقال له: «**تنحَّ حتىٰ أريك؛ فإني لا أراك تُحسنُ تسلُخُ**». فأدخل يده بين الجلد واللحم، فدحس بها[(١)] حتىٰ توارت إلىٰ الإبط، ثم قال ﷺ: «**هكذا يا غلام فاسلخ**». ثم انطلق [أبو داود: ١٨٥].

ومرَّ في طريقه برجل قد وضع يُرْمَتَه علىٰ النار، فقال له: «**أطابتْ بُرمَتُك؟**». قال: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله. فتناول منها بَضعَةً، فجعل يعلكُها[(٢)] وهو يسير [أبو داود: ١٩٣].

وكان إذا أتىٰ بابَ قوم لم يستقبل البابَ من تقاء وجهه، ولكن يتجافىٰ إلىٰ ركنه الأيمن أو الأيسر؛ فقد كانت الدور صغيرة، ولم يكن علىٰ أبوابها يومئذ سُتور، ويقول: «**السلام عليكم، السلام عليكم**» [أبو داود: ٥١٨٦].

(١) أي: أدخلها ودسها.

(٢) أي: يمضغها.

زياراته ﷺ مع أصحابه

ومنها زيارته لعِتْبان بن مالك رضي الله عنه؛ فقد دعاه عِتبانُ رضي الله عنه ليصلِّي له في بيته، فأتىٰ إليه ضحىٰ، ومعه أبو بكر وعمر وبعض أصحابه، فقال له: «**أين تريدُ أن أصلِّي في بيتك؟**». فأَرَاه ناحية في بيته، وبسط له فيها حصيرًا، ورشَّ طرفه بالماء، فصلَّىٰ بهم ركعتين، ثم استبقاه عتبان؛ ليصيب من طعام صنعه له، فجلس وطَعِم عنده [**البخاري: ٤٢٥**].

وكان يُؤْنِس مَن يزورهم، ويسعهم جميعًا برُّه وحسن خلقه، حتىٰ صِبيتهم وصغارهم.

قال أنس رضي الله عنه: كان النبيُّ ﷺ أحسنَ الناس خُلقًا، وكان يغشانا ويخالطنا، وكان لي أخ فَطِيم -في الثالثة من عمره- وكان إذا زارنا يمازحه ويضاحكه، فزارنا ذات يوم فوجده حزينًا، فقال: «**يا أمَّ سُليم، ما لي أرىٰ ابنك أبا عُمَير حزينًا خَاثِر النفس**[(١)]؟». قالت: يا رسول الله، مات نُغَيْرُه[(٢)] الذي كان يلعب به. فأقبل عليه، وجعل يمسح رأسه، ويقول: «**يا أبا عُمَير، ما فعل النُّغَيْر؟ يا أبا عُمَير، ما فعل النُّغَير؟**» [البخاري: ٦١٢٩].

وكان إذا زار أحدًا من أصحابه وطَعِم عندها دعا لهم وصلَّىٰ عليهم؛ فقد زار سعدَ بنَ عبادة رضي الله عنه، فجاءه بخبز وزيت، فأكل ﷺ، ثم قال:

---

(١) أي: ثقيل النفس، غير طيب ولا نشيط.

(٢) النغير: طائر صغير شبه العصفور.

«**أَفْطَرَ عندكم الصائمونَ، وأَكَلَ طعامَكم الأبرارَ، وصلَّت عليكُم الملائكةُ**» [أبو داود: ٣٨٥٤].

وزار بُسْرَ بنَ أبي بُسْر رضي الله عنه، فقرَّب إليه طعامًا ووَطْبَةً، فأكل منها، ثم أُتِي بشراب فشربه، ثم قال: «**اللهمَّ بارك لهم في ما رزقتهم، واغفرْ لهم وارحمهم**» [مسلم: ٢٠٤٢].

عيادته المرضى

ومن زياراته: عيادته المرضىٰ، ومن ذلك أن سعد بن عبادة ﷺ اشتكىٰ شكوىٰ، فأتاه النبيُّ ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود ﷺ، فلما دخل عليه وجده قد غُشِي عليه، وحوله أهله، فقال: «**قد قضىٰ؟**». قالوا: لا يا رسول الله. فبكىٰ النبيُّ ﷺ، فلما رأىٰ القومُ بكاءَ النبيِّ ﷺ بَكَوْا، فقال: «**أَلَا تسمعون! إن الله لا يعذِّبُ بدَمْع العين، ولا يحُزْن القلب، ولكن يعذِّب بهذا -وأشار إلىٰ لسانه- أو يرحم**» [البخاري: ١٣٠٤].

ومن ذلك عيادته جابر بن عبد الله ﷺ، قال جابر: مَرِضْتُ فعادني رسولُ الله صلىٰ عليه وآله وسلم ومعه أبو بكر ماشيين، وأنا في قومي بني سَلِمة، فوجدني قد أُغمي عليَّ، فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم رشَّ عليَّ من وَضوئه، فأفقت، فإذا رسولُ الله ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله، كيف أصنع في مالي، وإنما يرثني كلالة -أي: لا والد لي ولا ولد- فلم يرد عليَّ شيئًا حتىٰ نزلت آية الميراث [البخاري: ٦٧٢٣].

راحة القيلولة

ويذهب رسول الله ﷺ إذا تعالىٰ الضحىٰ إلىٰ بيت زوجه التي هو عندها وفي يومها، فإذا دخل بيته كان أول شيء يفعله عند الدخول الذكر والسواك والسلام علىٰ أهل البيت[١]، ثم يصليِّ صلاة الضحىٰ أربع ركعات، وربما زاد فصلاها ستًّا أو ثمانًا [البخاري: ١١٠٤].

وربما صادف طعامًا فأصاب منه، إذا لم يكن طَعِم في الصباح، وقد يعرض عليه الطعام وهو صائم فيفطر، فقد قالت له عائشة رضي الله عنها يومًا: «يا رسول الله، أُهديت لنا هدية، أو جاءنا زائر، وقد خبأتُ لك شيئًا. قال: «**وما هو؟**». قالت: حَيْسٌ[٢]. قال: «**هاتيه**». فجاءت به فأكل، ثم قال: «**قد كنتُ أصبحتُ صائمًا**»[٣].

وفي دخوله هذا رأىٰ زوجه جُويرية رضي الله عنها في مصلَّاها تذكر الله، وكان قد دخل عليها في الصباح وهي علىٰ حالها تلك، فقال: «**ما زلتِ علىٰ حالك التي فارقتك عليها؟**». قالت: نعم. قال: «**لقد قلتُ بعدَك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وُزنت بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزِنَة عرشه، ومِدَاد كلماته**»[٤].

---

(١) ينظر ما تقدم في دخوله ﷺ علىٰ نسائه أول النهار.

(٢) الحَيْس: طعام تتخذه العرب من الأقط -وهو اللبن المجفف- والتمر والسمن، تحاس -أي تخلط- جميعًا، وهو من طعام السفر غالبًا لسهولة إعداده.

(٣) ينظر ما تقدم في دخوله ﷺ بيوته أول النهار.

(٤) ينظر ما تقدم في دخوله ﷺ علىٰ جويرية رضي الله عنها، وذلك أول النهار.

وكانت هذه ساعة خلوته في بيته مع أهله.

وربما أتاه فيها بعض نساء المؤمنات يسألنه عن أمور دينهن مما لا يجرؤن علىٰ السؤال عنه أمام الرجال، ويكون السؤال بمحضر أمهات المؤمنين، فحفظن للأمة هذه الفتاوىٰ النبوية في خاصة أمور النساء.

ومن ذلك: أن إحدىٰ نساء الأنصار أتته عند عائشة رضي الله عنها، فسألته عن غسل المحيض، فقال: «**تأخذ إحداكُنَّ ماءَها وسِدْرَتها، فتطهَّرُ، فتُحسنُ الطُّهورَ، ثم تصبُّ علىٰ رأسها، فتَدْلُكُه دَلْكًا شديدًا، حتىٰ تبلغ شؤونَ رأسها، ثم تصبُّ عليها الماء، ثم تأخذ فِرْصَةً مُمَسَّكةً فتطهَّرُ بها**». فقالت المرأة رضي الله عنها: وكيف تَطَهَّرُ بها؟ فقال: «**سبحان الله، تطهَّرين بها!**». واستحىٰ وأعرض، قالت عائشة رضي الله عنها: فلما رأيته استحىٰ جذبتها إليَّ، فقلت: تتبَّعي بها أثر الدم. وهو يسمع ولا ينكر [**البخاري**: ٣١٤].

وأتتاه أم سُليم وهو عند زوجته أم سَلَمة رضي الله عنها، فقالت: يا رسول الله، أرأيتَ إذا رأتِ المرأةُ أن زوجها يجامعها في المنام، أتغتسل؟ فقالت أم سلمة: تَرِبَتْ يداك يا أم سُليم، فضحتِ النساء عند رسول الله ﷺ! فقالت أم سُليم: إن الله لا يستحي من الحق، وإنا إن نسأل النبي ﷺ عما أشكل علينا، خير من أن نكون منه علىٰ عَمياء! فقال النبي ﷺ لأم سلمة: «**بل أنت تَرِبَتْ يداك؛ نعم يا أم سُليم، عليها الغسل إذا وجدت الماء**». فقالت أم سلمة: يا رسول الله، وهل للمرأة ماء؟ فقال النبي ﷺ: «**فأنىٰ يشبِهُها ولدها؟ هن شَقَائِقُ الرجال**» [**البخاري**: ٦٠٩١].

وقد كان لنساء الأنصار رضي الله عنهن جرأة في السؤال والاستيضاح، حتىٰ قالت عائشة رضي الله عنها: «نِعْمَ النساءُ نساءُ الأنصار؛ لم يمنعهنَّ الحياءُ أن يتفقهن في الدين» [**مسلم**: ٣٣٢].

وربما زاره في هذا الوقت بعض خاصة أصحابه لأمر يعرض لهم:

ومن ذلك: أن رسول الله ﷺ كان في بيته مضْطَجِعًا علىٰ فراشه، لابسًا مِرْطًا لعائشة[1]، كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه، فجاء أبو بكر رضي الله عنه، فاستأذن، فأَذِن له، وهو علىٰ تلك الحال، فقضىٰ إليه حاجته ثم انصرف، ثم جاء عمرُ رضي الله عنه، فاستأذن، فأَذِن له، وهو علىٰ تلك الحال، فقضىٰ إليه حاجته ثم انصرف، ثم جاء عثمانُ رضي الله عنه، فاستأذن، فجلس ﷺ وسوَّىٰ عليه ثيابه، وقال لعائشة رضي الله عنها: «**أجمعي عليك ثيابك**». ثم أَذِن له فدخل، وتحدَّث إلىٰ النبي ﷺ، وقضىٰ إليه حاجته، ثم انصرف، فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، دخل أبو بكر، فلم تهتشَّ له ولم تُبَالِه، ثم دخل عمر فلم تَهْتَشَّ له ولم تُبَالِهِ، ثم دخل عثمان فجلست، وسوَّيتَ عليك ثيابك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ألا أستحي من رجل تستحي من رجل تستحي منه الملائكة! إن عثمانَ رجالٌ حَيِيٌّ، وإني خشيتُ إن أذنتُ له علىٰ تلك الحال أن لا يبلُغَ إليَّ في حاجته**» [مسلم: ٢٤٠١].

أَمَّا إذا خلا مع زوجته في بيته، فقد وصفت عائشة رضي الله عنها حاله تلك، فقالت: «كان إذا خلا في بيته مع أهله ألين الناس، وأكرم الناس، كان رجلًا من رجالكم، إلا أنه كان ضَحَّاكًا بَسَّامًا، وما كان إلا بشرًا من البشر، كان يكون في مهنة أهله -أي خدمة أهله- يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويحلُب شاته، ويخدُم نفسه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته» [البخاري: ٦٧٦].

إن هذا مشهد من مشاهد التمازج الزوجي في حياة النبي ﷺ، فلم يكن في بيته الذي كان حجرة واحدة متقاربة الأطراف ما يُحْوِجُ أهلَه إلىٰ

(١) المرط: ثوب يلبسه الرجال والنساء، يكون إزارًا، ويكون رداءً.

معونة، حتىٰ يكون في مهنة أهله، ولكنها العظة الأخلاقية، حيث يشارك أهله مهنتهم؛ ليشعرهم أن البيت بيتُهم جميعًا، كما أن الحياةَ حياتُهم جميعًا.

كم في هذه اللفتة النبوية من رسائل الاهتمام الزوجي والحفاوة بالحياة الزوجية! فصلَّىٰ الله علىٰ مَن كان خيرَ الناس للناس، وخيرَ الناس لأهله.

وكما كان في بيته ومع أهله مساحة واسعة للوُدِّ والرحمة، ففيه مساحة واسعة للأنس والبهجة، وعفوية الحياة ولهوها، فها هي سَوْدة تزور عائشة رضي الله عنها يومًا في حجرتها، فجلسَ رسولُ الله بينها وبين عائشة، ووضع إحدىٰ رجليه في حِجر عائشة ورجله الأخرىٰ في حِجر سَوْدة، وكانت عائشة قد عملت حَرِيرة، فقالت لسَوْدة: كُلي. فأبت، قالت: لتأكلي أو لَأُلَطِّخَنَّ وجهك. فأبت، فأخذت بكفها شيئًا من القصعة فلطَّخت به وجهها، فرفع رسول الله ﷺ رجله من حِجْر سَوْدة كي تستقيدَ منها[1]، فأخذت من القصعة شيئًا، فلطَّخت به وجه عائشة، ورسول الله ﷺ يضحك من صنيعهما، وبينما هم يضحكون جميعًا، وانفعالات الفرح الصاخب تُدَوِّي في الحجرة النبوية، إذ سمعوا صوت عمر ينادي في المسجد: يا عبد الله بن عمر، يا عبد الله بن عمر. فقال ﷺ: «**قومًا فاغسلا وجوهكما، فلا أحسب عمرَ إلا داخلًا**» [النسائي في السنن الكبرىٰ: ٨٩١٧].

لقد كان هذا التآنس والتهازل حَرَاكًا في مساحة السَّعة الواسعة التي جعلها رسول الله صلة الله عليه وآله وسلم ميدانًا للحياة؛ إن في ديننا سَعة.

وكان ينام القَيْلولة إلىٰ قريب صلاة الظهر، وكانت قَيْلُولته في بيوته وعند أزواجه، ولم يكن يدخل علىٰ أحد من النساء إلا علىٰ أزواجه، عدا

(١) أي: تنتصر لنفسها منها.

أم سُليم رضي الله عنها؛ فإنه كان يدخل عليها ويَقِيل عندها، وهي من محارمه[(١)]، فقيل له في ذلك، فقال: «**إني أرحمها؛ قُتل أخوها معي**» [البخاري: ٢٨٤٤].

وربما دخل ونام علىٰ فراشها، وليست في بيتها، فأُتيت يومًا، فقيل لها: هذا النبيُّ ﷺ نائمٌ علىٰ فراشك. فجاءت، وذلك في الصيف، وقد عَرِقَ النبيُّ ﷺ حتىٰ استنقع عَرَقُه علىٰ قطعة أَدِيم علىٰ الفراش، فجعلت تُنَشِّف ذلك العرق وتعصِرُه في قارورةٍ، فاستيقظ وهي تصنع ذلك، فقال: «**ما تصنعين يا أم سُليم؟**». قالت: يا رسول الله، عرقك أجعله في طِيْبي، وأرجو بركتَه لصبياننا. قال: «**أصبتِ**». ودعا لها بدعاء حسن [مسلم: ٢٣٣١].

(١) اتفق العلماء علىٰ أن دخوله ﷺ علىٰ أم سليم رضي الله عنها كان للمحرمية بين أم سليم رضي الله عنها ورسول الله ﷺ، واختلفوا في سبب المحرمية، من نسب أو رضاع، أم هي خصوصية له ﷺ؛ حيث لم يكن يدخل علىٰ أحد من النساء غير أزواجه وأم سليم وأختها أم حرام رضي الله عنهن. وينظر: «**شرح النووي علىٰ صحيح مسلم**» (١٣/ ٥٧-٥٨)، (١٦/ ١٠)، و«**فتح الباري**» لابن حجر (٩/ ٢٠٣)، (١١/ ٧٨-٨٠).

إلى قُباء

وكان يذهب ضحىٰ كل سبت إلىٰ قُبَاءَ، فيصلِّي في مسجد قُباءَ، ويأتي إليه أهل قُباءَ، وهم بنو عوف بن الحارث في المسجد، فيسلِّمون عليه وهو يصلِّي، فيشير إليهم [**البخاري**: ١١٩١].

فإذا ذهب إلىٰ قُباءَ فإنه ينام القيلولة عند أم حَرَام بنت مِلْحَان أخت أم سُليم وزوجه عبادة بن الصامت رضي الله عنهم، وهي من محارمه ﷺ[(١)].

فدخل عليها يومًا، فأطعمته وجعلت تَفْلِي رأسه، فنام رسولُ الله صلىٰ الله وآله وسلم، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «**ناسٌ من أمتي عُرضوا عليَّ غَزاةً في سبيل الله، يركبون ثَبَجَ هذا البحر**[(٢)] **مُلوكًا علىٰ الأَسِرَّة**». قالت: يا رسول الله، ادعُ اللهَ أن يجعلني منهم. فدعا لها رسول الله ﷺ، ثم وضع رأسه، ثم استيقظ وهو يضحك، فقالت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «**ناسٌ من أمتي عُرضوا عليَّ غُزاةً في سبيل الله**». كما قال في الأول، قالت: يا رسول الله، ادْعُ الله أن يجعلني منهم. قال: «**أنت من الأوَّلين**». فركبت البحر في زمان معاويةَ بن أبي سفيان رضي الله عنه، فصُرعت عن دابتها حين خرجت من البحر، فتُوفِّيت شهيدة رضي الله عنها [**البخاري**: ٢٧٨٨].

---

(١) ينظر ما تقدم في دخوله علىٰ أم سليم رضي الله عنها.

(٢) أي: وسط البحر، أو ظهر البحر.

أمسيات الرسول ﷺ

فإذا زالت الشمس أذن بلال للظهر، فيستيقظ ﷺ من قيلولته إن كان لا يزال نائمًا، ويجيب المؤذن بمثل ما يقول[١]، ويتوضأ إن كان به حاجة إلىٰ وضوء[٢]، ثم يصلي في بيته أربع ركعات [البخاري: ٩٣٧]، وكان يقول: «إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء، وأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح» [الترمذي: ٤٧٨].

ثم ينتظر الصلاة في بيته، وربما كان عنده بعض بنيه، كالحسن والحسين، ابني فاطمة، أو أمامة ابنة ابنته زينب؛ فيلاعبهم، حتىٰ يأذنه بلال رضي الله عنه بالصلاة فيخرج.

وربما قبل إحدىٰ زوجاته وهو خارج إلىٰ الصلاة [أبو داود: ١٧٩]، فإذا خرج أقام بلال رضي الله عنه الصلاة، وقام الصحابة رضي الله عنهم إذا رأوه[٣].

وربما فجئهم منظره خارجًا إليهم حاملًا الحسن أو الحسين عليهما السلام، أو حاملًا ابنته أمامة علىٰ رقبته، وربما وضع الصبي وصلىٰ وهو إلىٰ جانبه.

ومن ذلك أنه خرج مرة، وهو حامل الحسن أو الحسين، فتقدم فوضعه، ثم ك للصلاة، فصلىٰ، فسجد في أثناء صلاته سجدة أطالها، فرفع

---

(١) ينظر ما تقدم في استيقاظه ﷺ بعد الفجر.

(٢) وربما قام ﷺ إلىٰ الصلاة من غير وضوء، فيقال له في ذلك، فيقول: «**تنام عيناي، ولا ينام قلبي**». كما تقدم.

(٣) ينظر ما تقدم في صلاة الصبح.

شداد بن الهاد رضي الله عنه رأسه، فإذا الصبي علىٰ ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، فلما قضىٰ رسول الله ﷺ صلاته قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت سجدةً أطلتها، حتىٰ ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحىٰ إليك! قال: «كل ذلك لم يكن؛ ولكن ابني ارتحلني، فكرهت أن أعجله حتىٰ يقضي حاجته» [النسائي: ١١٤١].

وربما صلىٰ والطفلة علىٰ عاتقه، إذا ركع وضعها، وإذا قام رفعها، كما صنع ذلك وهو حامل أمامة بنت زينب رضي الله عنها [البخاري: ٥١٦].

وكان يصلي الظهر في أول وقتها، ويقرأ فيها بنحو ثلاثين آية في الركعتين [البخاري: ٥٦٠].

وربما أطالها أحيانًا، حتىٰ إن الصلاة تقام، فيذهب الذاهب إلىٰ البقيع، فيقضي حاجته، ثم يذهب إلىٰ أهله فيتوضأ، ثم يأتي ورسول الله ﷺ في الركعة الأولىٰ؛ مما يطولها [مسلم: ٤٥٤].

وكان يسر القراءة في صلاته، فيعرفون قراءته باضطراب لحيته، وربما سمعوا منه الآية والآيتين أحيانًا [البخاري: ٧٤٦].

فإذا فرغ من صلاته أقبل علىٰ أصحابه، فإن كان قد نزل أمر أو عرض عارض خطب الناس بعد صلاة الظهر؛ لأنها وقت اجتماع الناس؛ إذ هم قد نهضوا من قيلولتهم، فالاجتماع فيها أكثر، والنفوس جامة مستريحة واعية لما يقال.

ومن ذلك: خطبته عندما قدم عليه وفد المضريين، فرأىٰ ما بهم من الجوع والفاقة، فخطب بعد صلاة الظهر، فحمد الله، وأثنىٰ عليه، ثم قال: «**أما بعد، فإن الله أنزل في كتابه**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النِّسَآء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحَشۡر: ١٨]. تصدق رجل من دينار، من درهمه، من صاع بره، من صاع تمره». حتىٰ قال: «**ولو بشق تمرة**». فحث الناس علىٰ الصدقة ورغبهم فيها[(١)].

ومن ذلك: خطبته يوم قدم عليه ابن اللتبية رضي الله عنه من سعاية كان قد ولاه عليها، فقال: يا رسول الله، هذا لكم، وهذا أهدي لي. فخطب الناس بعد صلاة الظهر، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: «**أما بعد، فإني أستعمل الرجل منكم علىٰ العمل مما ولاني الله، فيأتي فيقول: هذا لكم وهذا هدية أهديت لي. أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتىٰ تأتيه هديته! والله، لا يأخذ أحد منكم شيئًا بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة، فلأعرفن أحدًا منكم لقي الله يحمل بعيرًا له رغاء[(٢)]، أو بقرةً لها خوار[(٣)]، أو شاةً تيعر**»[(٤)]. ثم رفع يده حتىٰ رؤي بياض إبطه، يقول: «**اللهم هل بلغت؟**» [البخاري: ٢٥٩٧].

وصلىٰ الظهر مرةً، فلما سلم قام علىٰ المنبر، فذكر الساعة، وذكر أن قبلها أمورًا عظامًا، ثم قال: «**من أحب أن يسألني عن شيء فليسألني عنه، فو الله، لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به، ما دمت في مقامي هذا**». فأكثر الناس البكاء، وأكثر رسول الله ﷺ أن يقول: «**سلوني**». فقام عبد الله بن حذافة رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، من أبي؟ قال: «**أبوك حذافة**». فلما أكثر رسول الله ﷺ أن يقول: «**سلوني**». برك عمر، فقال:

---

(١) ينظر ما تقدم في مجلسه ﷺ بعد صلاة الصبح.

(٢) الرغاء: صوت ضجيج ذوات الخف.

(٣) الخوار: صوت البقر والغنم.

(٤) بفتح وكسر العين، أي: تصيح بشدة.

رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا. فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك، ثم قال: «**أولىٰ**[١]، **والذي نفس محمد بيده، لقد عرضت علي الجنة والنار آنفًا في عرض هذا الحائط، فلم أر كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم؛ لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**». فما أتىٰ علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه، غطوا رؤوسهم ولهم خنين[٢] [البخاري: ٩٢].

وخطب بعد الظهر في اليوم الذي رجم فيه ماعز رضي الله عنه، فقال: «**أو كلما نفرنا غزاةً في سبيل الله، تخلف رجل في عيالنا له نبيب**[٣] **كنبيب التيس، يمنح إحداهن الكثبة من اللبن**[٤]**، والله والله، لا أوتىٰ برجل فعل ذلك إلا نكلت به**». ولم يستغفر له ولم يسبه [مسلم: ١٦٩٢].

وكأن هذه الخطب تكون في الأمر العارض والشأن العاجل الذي لا يحتمل التأخير إلىٰ يوم الجمعة.

ثم يعود ﷺ إلىٰ بيته، فيصلي ركعتين هي راتبة الظهر[٥].

ثم يخرج ﷺ إلىٰ أصحابه[٦].

وربما جلس لهم إلىٰ العصر، كما حبس نفسه لوفد عبد قيس من صلاة الظهر إلىٰ صلاة العصر [البخاري: ١٢٣٣].

---

(١) هي كلمة تهديد ووعيد، ومعناها: قرب منكم ما تكرهونه.
(٢) الخنين: رفع الصوت بالبكاء والنحيب.
(٣) النبيب: صوت التيس عند الجماع.
(٤) أي: القليل منه.
(٥) ينظر ما تقدم في صلاته أربع ركعات قبل الظهر.
(٦) ينظر ما سيأتي في الركعتين بعد العصر.

وربما ذهب في هذا الوقت لقضاء بعض حاجات المسلمين؛ فقد بلغه أن أهل قباء؛ بني عمرو بن عوف كان بينهم شر، وأنهم اقتتلوا، حتىٰ تراموا بالحجارة، فصلىٰ الظهر، ثم قال لأصحابه: «**اذهبوا بنا حتىٰ نصلح بينهم**». وقال لبلال رضي الله عنه: «**إذا حضرت صلاة العصر، فمر أبا بكر فليصل بالناس**». فلما حضرت العصر أذن بلال، فلما حانت الصلاة جاء إلىٰ أبي بكر، فقال: يا أبا بكر، إن رسول الله ﷺ قد حبس وحانت الصلاة، فهل لك أن تؤم الناس؟ قال: نعم، إن شئت. فأقام بلال، وتقدم أبو بكر، فك وك الناس، وجاء رسول الله ﷺ يمشي في الصفوف، حتىٰ قام في الصف، فأخذ الناس في التصفيق، وكان أبو بكر لا يلتفت في صلاته، فلما أكثر الناس التصفيق التفت، فإذا رسول الله ﷺ، فذهب يتأخر، فأشار إليه رسول الله ﷺ، أن امكث مكانك. فرفع أبو بكر يده، فحمد الله، ورجع القهقرىٰ وراءه، حتىٰ قام في الصف، فتقدم رسول الله ﷺ، فصلىٰ للناس، فلما فرغ أقبل علىٰ الناس، فقال: «**يا أيها الناس، ما لكم حين نابكم شيء في الصلاة أخذتم في التصفيق؛ إنما التصفيق للنساء، من نابه شيء في صلاته فليقل: سبحان الله. فإنه لا يسمعه أحد حين يقول: سبحان الله. إلا التفت، يا أبا بكر، ما منعك أن تصلي بالناس حين أشرت إليك؟**». فقال أبو بكر: ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ [**البخاري**: ١٢١٨].

ومن ذلك ذهابه إلىٰ الأسواف[(١)]، عند بنات سعد بن الربيع، يقسم بينهن ميراثهن من أبيهن، وكن أول نسوة ورثن من أبيهن في الإسلام، فذهب إليهم ضحىٰ، فأتىٰ بغداء من خبز ولحم قد صنع له، فأكل

(١) موضع بالمدينة شامي البقيع.

رسول الله ﷺ وأكل القوم معه، ثم توضأ للظهر وتوضأ القوم معه، ثم صلىٰ بهم الظهر، ثم قعد في ما بقي من قسمته لهن حتىٰ حضرت الصلاة وفرغ من أمره منهن، فردوا إليه فضل غدائه من الخبز واللحم، فأكل وأكل القوم معه، ثم نهض فصلىٰ بهم العصر، ولم يتوضأ، ولا أحد من القوم [أبو داود: ٢٨٩١].

والعصر

وكان إذا أذن لصلاة العصر، انتظر حتىٰ يجتمع الناس لها، وكان يرغب في صلاة أربع ركعات قبل العصر، ويقول: «**رحم الله امرأً صلىٰ قبل العصر أربعًا**» [أبو داود: ١٢٧١].

فإذا اجتمعوا خرج فصلىٰ العصر، وكان يصليها في أول وقتها والشمس حية، حتىٰ قال أنس رضي الله عنه: «ما كان أحد أشد تعجل لصلاة العصر من رسول الله ﷺ» [**البخاري**: ٥٤١]. وكان يجعل قراءته فيها علىٰ النصف من صلاة الظهر(١).

فإذا فرغ من صلاته أقبل علىٰ أصحابه، فإن كان ثم حديث يريد أن يحدثهم حدثهم، فقد أقبل عليهم مرة بعد انصرافه من صلاة العصر، فقال: «**ما أدري، أحدثكم بشيء أو أسكت!**». فقالوا يا رسول الله، إن كان خيرًا فحدثنا، وإن كان غير ذلك، فالله ورسوله أعلم. قال: «**ما من مسلم يتطهر، فيتم الطهور الذي كتب عليه، فيصلي هذه الصلوات الخمس، إلا كانت كفارات لما بينهن**» [البخاري: ١٦٠].

وصلىٰ مرةً العصر، ثم قام يحدثهم، فكان مما قال: «**ما منكم من أحد يتوضأ، فيسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله؛ إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها**

(١) ينظر ما تقدم في قراءته في صلاة الظهر.

شاء، وما من مسلم يتوضأ، فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين، مقبل عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة» [مسلم: ٢٣٤].

وكان حديثه إلىٰ أصحابه بعد صلاة العصر قلي بالنسبة لصلاة الظهر؛ وذلك لِكَلَال الناس، وحاجتهم إلىٰ الانصراف لإكمال أعمالهم، وإعداد عشائهم.

فإذا انصرف من صلاة العصر دخل علىٰ نسائه، فيطوف عليهن جميعًا، فيدنو من كل امرأة منهن في مجلسه، فيقبل ويمس ما دون الوقاع، حتىٰ ينتهي إلىٰ التي هو يومها، فيبيت عندها [أبو داود: ٢١٣٥].

وربما اجتمعن في بيت التي هو عندها، ولعل ذلك في أوقات قصر النهار، حيث لا يتسع وقت العصر لطوافه عليهن، فيجتمعن في بيت التي يأتيها.

ومن ذلك: أنهن اجتمعن مرة في بيت عائشة رضي الله عنها، وجاءت زينب رضي الله عنها، فلما دخل رسول الله ﷺ مد يده إليها، فقالت عائشة: هذه زينب! فكف النبي ﷺ يده. فتقاولتا، حتىٰ علت أصواتهما، وأقيمت الصلاة، فمر أبو بكر علىٰ ذلك، فسمع أصواتهما، فقال: اخرج يا رسول الله إلىٰ الصلاة، واحث في أفواههن التراب. فخرج النبي ﷺ، فقالت عائشة: الآن يقضي النبي ﷺ صلاته، فيجيء أبو بكر فيفعل بي ويفعل. فلما قضىٰ النبي صلاته أتاها أبو بكر، فقال لها قو شديدًا، وقال: أتصنعين هذا؟! [مسلم: ١٤٦٢].

وكان ﷺ إذا دخل بيته بعد صلاة العصر صلىٰ ركعتين، مع أنه كان ينهىٰ عن الصلاة بعد العصر، وذلك أن وفد عبد القيس أتوا إليه ﷺ بالإسلام من قومهم، فشغلوه عن الركعتين اللتين بعد الظهر، فقضاهما بعد

العصر، ثم أثبتهما، وكان إذا صلىٰ صلاةً أثبتها، حتىٰ قالت عائشة رضي الله عنها: «والذي ذهب بنفسه، ما تركهما -أي الركعتين بعد العصر- حتىٰ لقي الله عز وجل» [البخاري: ٥٨٦]. وكان يقضي فترة بعد العصر غالبًا في بيته ومع نسائه.

وكما يجري في مجلسه مع زوجاته الأنس الزوجي، تجري المذاكرة العلمية والأسئلة والاستشكال، ويتلقىٰ ذلك رسول الله برحابة صدر وحسن تلق، فها هي عائشة رضي الله عنها تسأله عن أشد ما لقي في دعوته وبلاغه وجهاده، فتقول: يا رسول الله، هل أتىٰ عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فيقول: «**لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي علىٰ ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلىٰ ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم علىٰ وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال؛ لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك؛ لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين**»؟. فقال له رسول الله ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا**» [البخاري: ٣٢٣١].

ويحدث زوجه عائشة رضي الله عنها قائلًا «**من حوسب يوم القيامة عذب**». وكانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتىٰ تعرفه، فأوردت تساؤلًا واستشكالًا قائلة: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]. فقال: «**ليس ذاك الحساب، إنما ذاك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب**» [البخاري: ١٠٣].

وحدث مرة زوجته حفصة رضي الله عنها قائلًا «**إني لأرجو ألا يدخل النار أحد إن شاء الله تعالىٰ ممن شهد بدرًا والحديبية**». قالت: يا رسول الله، أليس قد قال الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]. قال: «**ألم تسمعيه يقول**: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾» [مريم: ٧٢] [مسلم: ٢٤٩٦].

وما كانت هذه المراجعة بين المصطفىٰ ﷺ وزوجاته لتتم لولا أنه استثار اليقظة العقلية، وفتح آفاق التفكير، وجعل المراجعة والتفاعل العقلي طريق القناعة واليقين.

وربما دعاه بعض أصحابه بعد صلاة العصر إلىٰ الأمر يحبون أن يشهده معهم، فيجيبهم لذلك؛ فقد دعاه رجل من بني سلمة بعد صلاة العصر، فقال: يا رسول الله، إنا نريد أن ننحر جزورًا لنا، ونحب أن تحضرها. وهذه من مناسبات السرور؛ لقلة اللحم عندهم، فقال ﷺ: «**نعم**». فانطلق، وانطلق معه بعض أصحابه، فوجدوا الجزور لم تنحر فنحرت، ثم قطعت، ثم طبخ منها، فأكلوا قبل أن تغيب الشمس [مسلم: ٦٢٤].

بعد الغروب

فإذا أذن المغرب لم يلبث إلا قليلًا ثم يخرج إلىٰ الصلاة، فإذا خرج وجد أصحابه قد ابتدروا السواري يصلون ركعتين قبل المغرب؛ حيث كان يرغب فيها ويقول: «**صلوا قبل المغرب، صلوا قبل المغرب**». ثم قال في الثالثة: «**لمن شاء**». وهما ركعتان خفيفتان؛ حيث لم يكن بين أذان المغرب وإقامتها إلا وقت قليل [**البخاري**: ٥٠٣].

فإذا خرج أقيمت الصلاة فصلىٰ المغرب، وكان يصلي المغرب في أول وقتها، وينصرف فيها قبل حلول الظلام، بحيث يخرج الرجل ولو رمىٰ لرأىٰ مواقع نبله؛ لانتشار الضياء [**البخاري**: ٥٥٩].

وكانت صلاته وقراءته فيها قصيرة غالبًا، وربما أطال القراءة أحيانًا؛ فقد قرأ مرة (سورة الأعراف)، وقرأ مرة (سورة الطور)، وقرأ مرة (سورة المرسلات) [**البخاري**: ٧٦٥].

ولم يكن يتحدث بعدها كما يتحدث في أعقاب الصلوات؛ وذلك لحاجة الناس إلىٰ الانصراف إلىٰ عشائهم وراحتهم.

فإذا صلىٰ المغرب عاد إلىٰ بيته فصلىٰ فيه ركعتين، سنة المغرب[(١)]، ثم تعشىٰ، وهذا هو وقت العشاء غالبًا، وربما قدموه قبل صلاة المغرب إذا

(١) ينظر ما تقدم في أربع ركعات قبل الظهر.

كانوا صيامًا؛ ولذا قال ﷺ: «**إذا قدم العشاء، فابدؤا به قبل أن تصلوا صلاة المغرب، ولا تعجلوا عن عشائكم**» [البخاري: ٦٧٢].

وكان يأمر أصحابه أن يأخذوا معهم إلىٰ عشائهم فقراء المسلمين، فيقول: «**من كان عنده طعام اثنين، فليأخذ ثالثًا، ومن كان عنده طعام ثلاثة، فليأخذ رابعًا**» [البخاري: ٦٠٢].

وربما أخذ ﷺ عشرة فذهب بهم إلىٰ بيته، ليتعشىٰ معهم، إذا كان عنده وفر طعام، وربما انقلب إلىٰ بيته فلا يجد فيه ما يأكله إلا التمر والماء، وربما مرت به أيام لا يكون في بيته ما يأكله ذو كبد رطبة [البخاري: ٢٥٦٧].

وكان طعامه يوضع علىٰ الأرض في السفرة، وما أكل ﷺ علىٰ خوانٍ[1] قط [البخاري: ٥٣٨٦].

فإذا قرب طعامه قال: «**بسم الله**». وأكل مما يليه، ولم تعد أصابعه ما بين يديه، فيأكل بثلاثة أصابع، ويأمر بالأكل من جوانب الصحفة، وأن تترك ذروتها [مسلم: ٢٠٣١].

ولم يكن يتكلف في طعامه، وإنما يأكل ما تيسر، ويسأل أهله: «**هل عندكم شيء**». فربما قالوا: ما عندنا شيء. وربما قالوا: ما عندنا إلا الخل. فيقول: «**نعم الإدام الخل**». وما عاب طعامًا قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه [مسلم: ٢٠٥١].

وإذا جلس علىٰ الطعام مع أصحابه لم يخل جلوسه من حديث يؤنس به، أو أدبٍ ير به، أو علمٍ ينشره.

---

(١) الخوان: ما يؤكل عليه الطعام من منضدة ونحوها، والسفرة هي: الإناء الذي يوضع فيه الطعام.

ومن ذلك: أن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه كان صبيا يتربىٰ في حجر الرسول ﷺ، فهو ابن زوجه أم سلمة رضي الله عنها، وكان يأكل مع رسول الله ﷺ، فكانت يده تطيش في الصحفة[(١)]، فقال له رسول الله ﷺ: «**يا غلام، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك**». قال عمر رضي الله عنه: فما زالت تلك طعمتي بعد [البخاري: ٥٣٧٦].

ووضعت بين يدي رسول الله ﷺ قصعة من ثريد ولحم، فتناول الذراع، وكانت أحب الشاة إليه، فنهس نهسة[(٢)]، فقال: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**». ثم سهن أخرىٰ، فقال: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**». فلما رأىٰ أصحابه لا يسألونه قال: «**ألا تقولون: كيفه؟**». قالوا: كيفه يا رسول الله. قال: «**يقوم الناس لرب العالمين**» [البخاري: ٣٣٤٠].

وكان إذا فرغ من طعامه لعق أصابعه، وكان يأمر بلعق الصحفة، ويقول: «**إنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة**» [الترمذي: ١٨٠٣].

فإذا رفعت مائدته قال: «**الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، الحمد لله الذي كفانا وأروانا، غير مكفي، ولا مكفورٍ، ولا مودعٍ، ولا مستغنًى عنه ربنا، اللهم إنك أطعمت وأسقيت وأغنيت وأقنيت وهديت وأحييت، اللهم فلك الحمد علىٰ ما أعطيت**» [البخاري: ٥٤٥٨].

وكان يغسل فمه بعد الطعام، وإذا شرب لبنًا غسل فمه، وقال: «**إن له دسمًا**» [البخاري: ٢١١].

---

(١) أي: تتحرك، فتميل إلىٰ نواحي القصعة، ولا تقتصر علىٰ موضع واحد.

(٢) النهس: أخذ اللحم بأطراف الأسنان. والنهش: الأخذ بجميعها.

وكان إذا تعشىٰ شرب علىٰ عشائه من نبيذ نبذ له من الصباح، كما أنه إذا تغدىٰ في الصباح شرب علىٰ غدائه من نبيذ نبذ له من العشاء [مسلم: ١٩٩٩].

وإن أكل معه بعض زوجاته آنسها علىٰ الطعام، فهو القائل: «**حتىٰ اللقمة ترفعها إلىٰ فم امرأتك صدقة**» [البخاري: ٢٧٢٤].

ومن ذلك: ما أخبرت به عائشة رضي الله عنها قالت: «**كان رسول الله ﷺ يدعوني فآكل معه وأنا حائض، وكان يأخذ العرق -وهو العظم عليه شيء من اللحم- فيقسم علي فيه، فأع قرت منه، ثم أضعه، فيأخذه فيعترق منه، ويضع فمه حيث وضعت فمي من العرق، ويدعو بالشراب، فيقسم علي فيه من قبل أن يشرب منه، فآخذه فأشرب منه، ثم أضعه، فيأخذه فيشرب منه، ويضع فمه حيث وضعت فمي من القدح**» [مسلم: ٣٠٠].

ويا لله كم من رسالة حب عبقة تصل إلىٰ قلب الزوجة المحبوبة من الزوج المحب بمثل هذا الإيناس المبهج، وكيف سيتحول الطعام بذلك إلىٰ غذاء للحب، كما هو غذاء للجسد!

صلاة العشاء

ويبقىٰ رسول الله ﷺ في بيته إلىٰ أذان العشاء، ولم يكن يعجل بصلاة العشاء، وإنما ينتظر، فإن رآهم اجتمعوا عجل، وإن رآهم تأخروا أخر، وكان يحب تأخيرها، لولا خوف المشقة علىٰ الناس [البخاري: ٥٦٠].

وقد أخرها مرةً، فجاء عمر إليه، فناداه: يا رسول الله، رقد النساء والولدان. فخرج ورأسه يقطر، وهو يمسح الماء عن شقه، ويقول: «**إنه للوقت، لولا أن أشق علىٰ أمتي لأمرتهم بالصلاة هذه الساعة**» [البخاري: ٧٢٣٩].

وكان ﷺ أخف الناس صلاة في تمام، وقال أنس رضي الله عنه: «**ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة، ولا أتم صلاة من رسول الله ﷺ**» [مسلم: ٤٦٩].

وكان يسمع بكاء الصبي مع أمه، وهو في الصلاة، فيقرأ بالسورة القصيرة؛ كراهية أن يشق علىٰ أمه، ويقول: «**إني لأدخل في الصلاة، أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في الصلاة؛ مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه**» [البخاري: ٧٠٧].

فإذا قضىٰ صلاة العشاء تحدث إلىٰ أصحابه، إن كان ثمة عارض يريد أن يحدثهم به.

ومن ذلك: أنه صلىٰ ذات ليلة العشاء في آخر حياته، فلما سلم قام فقال: «**أرأيتكم ليلتكم هذه، فإن علىٰ رأس مائة سنة منها لا يبقىٰ ممن هو علىٰ ظهر الأرض أحد**» [البخاري: ١١٦].

وأخر مرةً صلاة العشاء، ثم صلىٰ بأصحابه، ثم خطبهم، فقال: «**أ إن الناس قد صلوا ثم رقدوا، وإنكم لم تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة**» [البخاري: ٨٤٧].

وأعتم مرة بصلاة العشاء، حتىٰ ابهار الليل، ثم خرج ﷺ فصلىٰ بهم، فلما قضىٰ صلاته قال لمن حضره: «**علىٰ رسلكم، أبشروا، إن من نعمة الله عليكم أنه ليس أحد من الناس يصلي هذه الساعة غيركم**». فانقلب أصحابه إلىٰ دورهم فرحين ببشرىٰ رسول الله لهم [البخاري: ٥٦٧].

وكان حديثه بعد صلاة العشاء نادرًا وقصيرًا؛ لتعب الناس وحاجتهم للنوم؛ ولذا كان يكره الحديث بعدها [البخاري: ٥٦٨].

وكان إذا سلم مكث في مكانه حتىٰ ينصرف النساء، فيدخلن بيوتهن من قبل أن ينصرف رسول الله ﷺ، فإذا قام رسول الله ﷺ قام الرجال [البخاري: ٨٤٩].

ليالي الرسول ﷺ

ثم يرجع إلىٰ بيته فيص ركعتين راتبة العشاء، ثم يجلس سويعةً يتحدث مع أهله يؤانسهم ويسمر معهم قبل أن ينام، وربما ذهب يسمر عند بعض أصحابه، فيسمر عند الأنصار في بعض الليالي، ويسمر مع أبي بكر وعمر في بيت أبي بكر، فيتحدثون في أمر المسلمين، فإذا خرج سارا معه يتمتعان بصحبته ﷺ في الطريق حتىٰ يدخلا معه المسجد [**البخاري: ٤٥٦٩**].

وربما مر في طريقه بقارئ حسن الصوت من أصحابه يقوم بالقرآن، فيقف مستمعًا لهذه القراءة الحسنة، كما مر بأبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه ليلةً،

فوقف يستمع إليه، فلما أصبح لقيه، فقال له: «**يا أبا موسىٰ، لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود**» [**البخاري: ٥٠٤٨**].

ودخل المسجد ليلةً، فإذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قائم يصلي، يرتل سورة النساء، فقام ﷺ يستمع لقراءته، ثم قال لأبي بكر وعمر: «**من سره أن يقرأ القرآن رطبًا كما أنزل، فليقرأه علىٰ قراءة ابن أم عبدٍ**» [**ابن ماجه: ١٣٨**].

فإذا دخل المسجد سلم تسلي يسمع اليقظان، ولا يوقظ النائم؛ حيث لا يخلو المسجد من فقراء المسلمين الذين ينامون فيه، ثم يصلي في المسجد قبل أن يدخل بيته [**مسلم: ٢٠٥٥**].

فإذا دخل بيته، وأراد أن ينام تخفف من ثيابه، فأخذ خرقة توضع عند رأس فراشه، فاتزر بها، وخلع ثوبيه فعلقهما، ثم دخل مع زوجته في لحافها، وكان فراشه من جلد حشوه ليف، وله وسادة من جلد حشوها ليف يتوسدها هو وزوجته [مسلم: ١٤٧٩].

فإذا أراد أن ينام وضع سواكه عند رأسه؛ ليستاك به إذا استيقظ، وكان لا يرقد من ليل ولا نهار فيستيقظ إلا بدأ بالسواك [البخاري: ٢٤٥].

وكان إذا استاك أعطىٰ سواكه عائشة رضي الله عنها لتغسله، فتبدأ به فتستاك لتصيب أثر ريقه الطيب المبارك، ثم تغسله وتدفعه إليه [أبو داود: ٥٢].

فكان سواكه نظيفًا وقريبًا منه، يتعاهد به فمه الطيب المطيب تعاهدًا شديدًا، حتىٰ خ علىٰ أسنانه أن تقع لشدة ما أحفاها بالسواك [ابن ماجه: ٢٨٩].

وكأن ذلك ليطيب فمه الذي يناجي به ملائكة ربه، كما كان ينحي عنه البقول والخضراوات ذوات الرائحة، ويقول: «**ليس بمحرمٍ، ولكني أستحي من ملائكة الله، إني أناجي من لا تناجي**» [البخاري: ٨٥٥].

ولذا حافظ علىٰ السواك، فيبدأ به كلما استيقظ، ويقربه عند رأسه إذا أراد أن ينام.

وإذا أوىٰ إلىٰ فراشه قال: «**الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي، الحمد لله الذي من علي فأفضل، والذي أعطاني فأجزل، الحمد لله علىٰ كل حال، اللهم رب كل شيء، ومالك كل شيء، لك كل شيء، أعوذ بك من النار**» [مسلم: ٢٧١٥].

ثم يجمع كفيه المباركتين، فينفث فيهما، ويقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

﴿ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاسِ: ١]، ثم يمسح بها رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده ثلاث مرات [البخاري: ٥٠١٧].

فإذا اضطجع اضطجع على شقه الأيمن، ووضع يده تحت خده، وقال: «**اللهم باسمك أحيا، وباسمك أموت، اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك**» [البخاري: ٦٣١٢].

وله ﷺ أذكار يقولها عند نومه، فمنها:

«**اللهم رب السماوات، ورب الأرض، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول، فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر**» [مسلم: ٢٧١٣].

«**بسم الله وضعت جنبي، اللهم اغفر لي ذنبي، واخسأ شيطاني، وفك رهاني، وثقل ميزاني، واجعلني في الندي الأعلى**» [أبو داود: ٥٠٥٤].

«**اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت**» [البخاري: ٦٣١٥].

وربما قرأ سورًا من القرآن، فيقرأ أحيانًا ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾، وأحيانًا (سورة الزمر)، و(الإسراء) [الترمذي: ٢٨٩٢].

ثم يؤانس زوجته بالحديث معها سويعة، ولك أن تتخيل هذه النجوى بين زوج كريم محب وزوجة بحمة مشوقة في هدأة الليل وسكون المدينة

الجميل، إنها عطاء وجداني يفيض علىٰ النفس بأنواع المسرة والإبهاج، ويعطي العلاقة الزوجية عمقًا وجدانيا راسخًا في النفس.

وبعد هذه المناجاة الجميلة، فإن كان به حاجة الرجل إلىٰ زوجته قضىٰ الرغبة الزوجية الخاصة، فإذا فرغ من المعاشرة ناولته زوجته خرقة فمسح عنه أثر الجماع، ومسحت هي عنها.

وربما وافق زوجته أيام طمثها، فلا ينقطع عنها الإسعاد الزوجي، فكان يباشر زوجته وهي حائض، ويأمرها أن تأتزر، فيصيب منها ما يصيب الزوج من زوجته غير الجماع [**البخاري**: ٣٠٢].

وفي ذلك إشعار بالرغبة في الزوجة، وأن هذا العارض الطبيعي لا يقطع ألوانًا من التواصل الزوجي البهيج.

ومن ذلك: حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: كنت مع رسول الله ﷺ في لحافه، فوجدت ما تجد النساء من الحيضة، فانسللت من اللحاف، فقال رسول الله ﷺ: «**أنفست**». قلت: وجدت ما تجد النساء من الحيضة. قال: «**ذلك ما كتب الله علىٰ بنات آدم**». قالت فانسللت فأصلحت من شأني، ثم رجعت، فقال لي رسول الله ﷺ: «**تعالي فادخلي معي في اللحاف**». قالت: فأدخلني معه في لحافه [**البخاري**: ٢٩٨].

وكان يغتسل من الجنابة قبل أن ينام، وربما توضأ ونام وأخر الغسل لحين استيقاظه [**مسلم**: ٣٠٧].

وكان يغتسل أحيانًا هو وزوجته من إناء واحد، تختلف أيديهما فيه، تقول: «**دع لي، دع لي**». ويقول: دعي لي، دعي لي [**البخاري**: ٢٦١]. وهذا من المؤانسة وامتداد اللهو الجميل بين الزوجين.

ثم ينام، فإذا نام واستغرق في نومه نفخ - وهو صوت نفس النائم المرتفع - فإذا تقلب في فراشه من الليل قال: «**لا إله إلا الله الواحد القهار، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار**» [البخاري: ٦٩٨].

وكان لا يتقلب من الليل إلا أجرىٰ السواك علىٰ فمه، ثم يعود إلىٰ نومه إلىٰ أن ينتصف الليل [**البخاري: ٢٤٥**].

ويبدو أن هذه أطول فترة نوم ينامها النبي ﷺ.

ناشئة الليل

فإذا انتصف الليل استيقظ، ثم جلس يمسح النوم عن وجهه، وتناول سواكه فدلك به فمه الطيب المبارك، ثم رفع نظره إلىٰ السماء، ينظر بتفكر في هدوء الليل وسكونه إلىٰ عظمة الله في خلقه، وهو يتلو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ إلىٰ أخر الآيات العشر من سورة [آل عمران: ١٩٠-٢٠٠]، ثم يقوم إلىٰ قربة معلقة فيطلق رباطها، ويسكب الماء منها في قدح عنده، ثم يتوضأ وضوءًا مقتصدًا سابغًا، ثم يلبس إزاره ورداءه ويخلع الخرقة التي كان يتزر بها، ثم يصلي صلاة الليل [البخاري: ١٨٣].

وربما لهج لربه بالذكر والتسبيح والتعظيم قبل أن يبدأ صلاة التهجد، وكأن ذلك لمزيد التهيؤ والاستفتاح لقيام الليل، قالت عائشة رضي الله عنها: كان ﷺ إذا هب من الليل، كبر عشرًا، وحمد عشرًا، وقال: «**سبحان الله وبحمده**» عشرًا، وقال: «**سبحان الملك القدوس**» عشرًا، واستغفر عشرًا، وهلل عشرًا، ثم قال: «**اللهم إنس أعوذ بك من ضيق الدنيا، وضيق يوم القيامة**» عشرًا، ثم يفتتح الصلاة [أبو داود: ٧٦٦].

وكان يبتدئ قيامه بركعتين خفيفتين، وكما كان ﷺ أخف الناس صلاة إذا صلىٰ بالناس، فقد كان أطو مهل صلاةً إذا صلىٰ لنفسه، فصلاته في

الليل أطول صلاته استفتاحًا وقراءة ودعاءًا؛ امتثالًا لقول ربه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل: ٢] [البخاري: ٧٠٨].

والمتأمل لحاله ﷺ في تهجده، يستشعر أن صلاته بالليل صلاة مستغرقة، قد اجتمعت فيها كل مشاعره وأحاسيسه ونجواه، وكأنما عَرِجت روحه إلىٰ الملأ الأعلىٰ، وغشيته أنوار حجاب النور الإلهي؛ فهو ينظرُ إلىٰ عرش ربه بارزًا، ويناجيه خاليًا به، فحَمْدُه لربه أبلغ الحمد، وثناؤُه عليه أعظم الثناء، ودعاؤُه له أجمع الدعاء، ولا عجب؛ فهو الذي أُسري به حتىٰ خرقت له السَّبع الطِّباق، وارتفع إلىٰ مستوىٰ يسمعُ فيه صَرِيف الأقلام [البخاري: ٣٤٩].

فكان أعلم الخلق بالله، وأكملهم إيمانًا، وأصدقهم يقينًا، وقال، وصدَقَ وبرَّ: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله لأنا**» [البخاري: ٢٠].

فإذا قام إلىٰ صلاته استفتحها استفتاحَ المعظِّمِ لربه، المحبِّ له والمشتاق إليه، فاستفتاحُه جوامع التعظيم والحمد والثناء.

فمن فواتح صلواته إذا قام من الليل: «**اللهمَّ ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطرَ السماوات والأرض، عالمَ الغيب والشهادة، أنت تحكمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي مَن تشاء إلىٰ صراط مستقيم**» [مسلم: ٧٧٠].

ومنها: «**اللهمَّ لك الحمدُ، أنت نُورُ السموات والأرض ومَن فيهنَّ، ولك الحمدُ، أنت قَيِّمُ السموات والأرض ومَن فيهنَّ، ولك الحمدُ أنت مَلِكُ السموات والأرض ومَن فيهنَّ، ولك الحمدُ، لك مُلْك السموات والأرض ومَن فيهنَّ، ولك الحمدُ، أنت الحقُّ، ووعدك الحقُّ، ولقاؤُك حقٌّ، وقولُك حقٌّ، والجنة حقٌّ، والنار حقٌّ، والنبيون حقٌّ، ومحمدٌ** ﷺ

حقٌّ، والساعة حقٌّ، اللهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررتُ، وما أعلنتُ، أنت إلهي، لا إله غيرك، أنت المقدِّم، وأنت المؤخِّر، لا إله إلا أنت، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله» [البخاري: ١١٢٠].

ومنها: «وجَّهتُ وجهي للذي فطرَ السماوات والأرض حنيفًا، وما أنا من المشركين، إنَّ صلاتي ونُسُكي ومَحْيَاي ومماتي للرب ربِّ العالمين، لا شريكَ له، وبذلكَ أمرتُ، وأنا من المسلمين، اللهمَّ أنت الملِكُ، لا إله إلا أنت؛ أنت ربِّي وأنا عبدُك، ظلمتُ نفسي، واعترفتُ بذنبي، فاغفرْ لي ذنوبي جميعًا، إنه لا يغفرُ الذنوبَ إلَّا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلَّا أنت، واصرفْ عنِّي سيِّئها لا يصرفُ عنِّي سيِّئها إلَّا أنت، لبيك وسعديك، والخيرُ كلُّه في يديك، والشرُّ ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركتَ وتعاليتَ، أستغفرك وأتوبُ إليك» [مسلم: ٧٧١].

ثم إذا قرأ فإنه يقرأ قراءة مترسِّلة مرتَّلة، لا يمرُّ بآية رحمة إلَّا سأل، ولا آية عذاب إلا استعاذ، ولا آية تسبيح إلا سبَّح [مسلم: ٧٧٢].

وكان إذا قام أطال قيامه؛ قال ابن مسعود رضي الله عنه: «صليتُ مع رسول الله ﷺ ليلةً، فلم يزل قائمًا حتىٰ هممتُ بأمر سوء». قيل: وما هممتَ به؟ قال: «هممتُ أن أقعد وأذر النبيَّ ﷺ» [البخاري: ١١٣٥].

وقد يطيلُ القراءة ويقلِّل الركعات، وقد يقتصد في القراءة، فيزيد في الركعات، ولم تزد صلاته بالليل علىٰ ثلاث عشرة ركعة [البخاري: ١١٤٧].

وكان يطيل ركوعه، فكان ركوعه قريبًا من قيامه [مسلم: ٧٧٢].

وكان يقول في ركوعه: «**اللَّهمَّ لك ركعتُ، وبك آمنتُ، ولك أسلمتُ، وعليك توكلتُ، أنت ربي، خَشَعَ لك سمعي وبصري ودمي ولحمي وعظمي وعصبي لله ربِّ العالمين، سبحان ذي الجبروت والكبرياء والعظمة**» [مسلم: ٧٧١].

وكان يكثرُ أن يقولَ في آخر حياته في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهمَّ ربنا وبحمدك، اللهمَّ اغفرْ لي**». فسألته عائشة رضي الله عنها عن ذلك؟ فقال: «**أخبرني ربِّي أني سأَرَىٰ علامةً في أمتي، فإذا رأيتُها أكثرتُ من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. فقد رأيتُها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾** [النَّصر: ١-٣]» [البخاري: ٨١٧]. وكان هذا إيذانا بدنو أجله، وقرب لحوقه بالرَّفيق الأَعْلَىٰ.

وكان يطيل سجوده قريبًا من ركوعه، ويبتهل فيه إلىٰ ربه بأنواع المسألة، فهو الذي قال: «**أقربُ ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاءَ**» [مسلم: ٤٨٢].

وكان يقول في سجوده: «**اللهمَّ لك سجدتُ، وبك آمنتُ، ولك أسلمتُ، وأنت ربي، سجد وجهي للذي خلقه، وصوَّره فأحسنَ صُوَره، وشقَّ سمعه وبصره، فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين، اللهمَّ اغفر لي ذنبي كله، دِقَّهُ وجِلَّه، وأوَّله وآخِرَه، وعلانيته وسرَّه، اللهمَّ إنِّي أعوذُ برضاكَ من سخَطِكَ، وبمُعافاتكَ من عُقُوبتِكَ، وأعوذُ بكَ منكَ، لا أُحْصِي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسك، سبُّوحٌ قدُّوسٌ، ربُّ الملائكة والرُّوح**» [مسلم: ٤٨٣].

ويا لله لهذا النبي الكريم وهو يخافت ربه في سكون الليل بهذه النجوىٰ، ويذكر ربه هذا الذكر المفعم بالتقدِّيس والتعظيم والتألُّه

والاستكانة، أي أفق علوي تعرُج إليه روح هذا النبي وتسمُو إليه أشواقه وهو يذكر هذا الذكر ويتبتَّل لربه هذا التبتُّل! لكأن جبال الأرض تصغي إليه، ونجوم السماء تنظر إليه، ثم تتناجىٰ وتقول هذا الذي أنزل عليه: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ [المزمل: ٨].

ولا يزال نبيُّك ﷺ يقطع آناء الليل بين قراءة خاشعة ومسألة ضارعة وتسبيح قدسي، إلىٰ أن يبقىٰ سدس الليل.

يبيتُ يجافي جنبَه عنْ فِرَاشِه إذا استثقلَتْ بالمشركينَ المضاجعُ

فإذا أتم قيامه وأراد أن يُوتر أيقظ زوجه لتُوتر معه [**البخاري: ٥١٢**].

وكان يُوتر بثلاث ركعات، يقرأ في الأولىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، وفي الثانية: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، وفي الثالثة: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٞ﴾. وكان يضيف إليها أحيانًا: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [**أبو داود: ١٤٢٣**].

وكان يقول في آخر وتره: «**اللهمَّ إني أعوذ برضاك من سخطِكَ، وبمعافاتِكَ من عقوبتك، وأعوذُ بكَ منكَ، لا أُحْصِي ثناءً عليكَ، أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسك**» [**أبو داود: ١٤٢٧**].

فإذا فرغ من وتره قال: «**سبحانَ المَلكِ القدُّوس، سبحانَ الملكِ القدُّوس، سبحانَ المَلكِ القدُّوس**». يطيلُ الثالثةَ ويمد به صوته [**النسائي: ١٦٩٩**].

وقد كان نبيُّك ﷺ يصلِّي في حجرته التي زوىٰ عنها ترف العيش ونَعِيم الدنيا، فربَّما صلَّىٰ علىٰ الخُمْرة، وهي حَصِير صغير بقدر ما يسجد عليه، وربما صلَّىٰ ولا فراش له إلا فراش زوجه، فيصلِّي وهي معترضة أمامه، ولم يكن في بيوته مصابيح، فإذا أراد أن يسجد غمزها، فتكف رجليها عن موضع سجوده، فإذا قام بسطتها [**البخاري: ٣٧٩**].

وربما خرج فصلَّىٰ في المسجد أحيانًا قليلة، وكأنما يفعل ذلك لأمر عارض، أحسبه خشية أن يوقظ زوجته بصلاته إذا صلَّىٰ عندها وهي نائمة، فيصلِّي في المسجد، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: فقدتُ النبيَّ ﷺ ليلةً في الفراش، فالتمستُه، فوقعتْ يدي علىٰ بطن قدميه وهما منصوبتان في المسجد، وهو يقول: «**اللهمَّ أعوذُ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذُ بكَ منكَ، لا أُحْصِي ثناءً عليكَ أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسك**» [مسلم: ٤٨٦].

وقالت أيضًا: فقدتُه ذات ليلةٍ، فظننتُ أنه ذهب إلىٰ بعض نسائه، فتحسَّستُ، ثم رجعتُ، فإذا هو راكع أو ساجد، يقول: «**سبحانك وبحمدك، لا إله إلا أنتَ**». قالت: فقلتُ في نفسي: بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله، أنا في شأن، وأنت في شأن آخر [مسلم: ٤٨٥].

خطوات في سكون الليل

وربما خرج في الليل وقت التهجد إلىٰ بيت ابنته فاطمة وزوجها علي عليهما السلام، فيطرقهما ويناديهما: «**ألا تقومان فتصليان؟**». قال عليٌّ رضي الله عنه: فقلتُ: يا رسولَ الله، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف رسولُ الله ﷺ حين قلتُ له ذلك، ولم يَرْجِع إليَّ شيئًا، ثم سمعتُه وهو مُدْبِر يضرب علىٰ فخذه، ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] [البخاري: ١١٧٢].

وكان في آخر حياته يخرج في الليل إلىٰ البَقِيع، فيدعو لهم، وكان أول ذلك ما أخبرت به عائشة رضي الله عنها قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبيَّ ﷺ فيها عندي، انقلبَ فوضعَ رداءَه، وخلع نعليه فوضعَهُما عند رجليه، وبَسَطَ طَرَف إزاره علىٰ فراشه فاضطجع، فلم يلبثْ إلا رَيْثَما ظنَّ أن قد رقدتُ، فأخذ رداءَه رُويدًا، وانتعل رُويدًا، وفتح الباب فخرج، ثم أَجافَه رُويدًا، فجعلتُ دِرْعِي في رأسي، واختمرتُ وتقنَّعتُ إزاري، ثم انطلقتُ علىٰ إِثْرِه.

حتىٰ جاء البَقِيعَ، فقام فأطالَ القيامَ، ثم رفع يديه ثلاثَ مراتٍ، ثم انحرف فانحرفتُ، فأسرعَ فأسرعتُ، فهَرْوَلَ فهَرْوَلْتُ، فأَحْضَرَ فَأَحْضَرْتُ، فسبقته فدخلتُ، فليس إلا أن اضطجعتُ فدخل، فقال: «**ما لك يا عائشُ، حَشْيَا رَابِيةً**». قالت: قلتُ: لا شيء. قال: «**لتُخْبريني، أو ليخبرنيَّ اللطيفُ الخبيرُ**». قالت: قلتُ: يا رسولَ الله، بأبي أنت وأمي . . فأخبرتُه، قال:

«**فأنتِ السوادُ الذي رأيتُ أمامي؟**». قلتُ: نعم. فلَهَدَني في صدري لهدةً أوجعتني، ثم قال: «**أظننتِ أن يَحِيفَ اللهُ عليك ورسولهُ**». قالت: مَهْما يكتُمِ الناسُ يعلَمُه اللهُ، نعم. قال: «**فإنَّ جبريلَ أتاني حين رأيتِ، فناداني فأخفاه منك، فأجبتُه فأخفيتُه منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعتِ ثيابك، وظننتُ أن قد رقدتِ، فكرهتُ أن أوقظكِ، وخشيتُ أن تستوحشي، فقال: إن ربك يأمرُك أن تأتيَ أهل البَقِيع؛ فتستغفرَ لهم**».

قالت: قلتُ: كيف أقولُ لهم يا رسولَ الله؟ قال: «**قولي: السلامُ علىٰ أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحمُ الله المستقدمينَ منا والمستأخرينَ، وإنَّا إن شاء اللهُ بكم للاحقون**».

ثم كان بعد ذلك يخرج كل ليلة من آخر الليل إلىٰ البَقِيع، فيقول: «**السلامُ عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون، غدًا مؤجَّلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهمَّ اغفر لأهل بَقِيع الغَرْقَد**» [مسلم: ٩٧٤].

ويا لله لهذا النبيِّ الذي يَسْرُبُ في سكون الليل ليقف أمامَ قبور أصحابه الذين قَضَوْا نحبهم قبل أن يروا نصرَ الله والفتح ودخولَ الأفواج في دين الله، مَضَوْا إلىٰ ربهم في وقت القِلَّة والشِّدَّة والصبر واللَّأْوَاءِ والمصابرة، فأَفْضَوا إلىٰ ربهم، لم يتعجَّلوا شيئًا من أجورهم.

ثم ها هو ﷺ لم تشغله أفواجُ الوافدين عليه، ولا مشاغلُ انفساح رُقعة الإسلام بين يديه، فإذا هو يقتص من وقت راحته وسكونه، وقتًا يقف فيه أمام قبورهم، يستعيد ذِكْرىٰ أطيافهم المباركة، باسطًا يديه في موقِف دعاء ووفاء.

كان ﷺ يُوشكُ أن يودِّعَ الدنيا، فجعلَ يودِّعُ الأمواتَ والأحياءَ قبل أن يلحق بالرَّفيق الأعلىٰ والمَحَلِّ الأَسْنَىٰ.

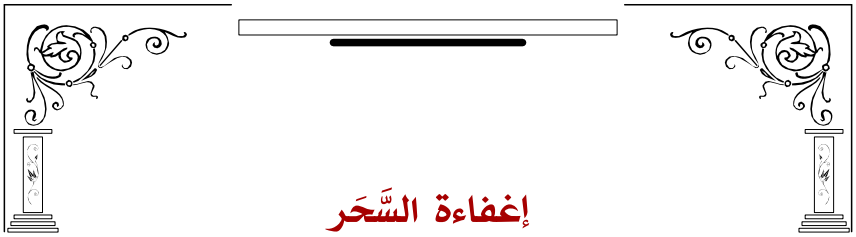

إغفاءة السَّحَر

فإذا تدافعت ساعاتُ الليل، ولم يبقَ من الليل إلا صُبابَتُه الأخيرةُ، وسُدُسُه الأخيرُ، أَوَىٰ رسولُ الله ﷺ إلىٰ فراشه؛ ليريح البدنَ الشريفَ بعد سَبْحِ ليلٍ طويلٍ، ذِكْرًا وصلاةً ودعاءً وتعاهدًا للأقارب الأحياء، وللأصحاب الأموات، فيَهْجَعُ هجعةً يَجِمُّ بها بدَنَه بعد القيام، ويهيِّؤه لاستقبال صلاة الصبح وعمل النهار بنشاط وإقبال، فتتقصَّف سُويعةُ السَّحَر ونبيُّك ﷺ مستغرق في نومه، تقولُ أُمُّنا عائشةُ رضي الله عنها: «**ما أَلْفَىٰ رسولَ الله ﷺ السَّحَر عندي إلا نائمًا**» [البخاري: ١١٣٣].

ويظلُّ ﷺ في نومته تلك حتىٰ يَصْدَعَ نورُ الفجر ظلمةَ الليل؛ ويَصْدَعَ أذانُ بلالٍ سكونَ المدينة، فيستيقظُ رسولُ الله ﷺ، ويبتدُئ يومٌ نبويٌ جديدٌ، معطَّرٌ بأنفاس النبوَّة، مُنَوَّر بأنوار الرِّسالة.

قراءة لليوم النبوي

اليومُ النبويُّ يشكِّل مَقْطَعًا عموديًّا للحياة النبوية العريضة، يتجلَّىٰ لنا **من خلال باقة من الدِّلالات العميقة**:

١- أن هذا **اليوم النبوي** هو الوعاء الزماني للإنجازات الكبرىٰ التي تحقَّقت علىٰ يد النبي ﷺ، فلم يَعرِف التاريخ إنجازًا تحقَّق علىٰ يد بشر كالإنجاز الذي تحقَّق علىٰ يد هذا الرسول الكريم العظيم.

٢- ألم يلفتْ نظرَك شدَّةَ الوضوح إلىٰ درجة السُّطوع في حياته ﷺ اليومية، فليس في حياته زوايا مظلمة أو حلقات مفقودة، بل كان حاله جَلِيٌّ ظاهر باهر، حتىٰ إنا نعلم حاله في بيته إذا أغلق بابه، وحاله علىٰ فراشه إذا نام مع أهله، وصوت نَفَسِه إذا نام، وأول ما يقول إذا استيقظ.

لقد شعرتُ وأنا أتتبَّع برنامج **اليوم النبوي** أني أعرفُ عن نبيي أكثر مما أعرف عن أبي الذي ولدني، ففدىٰ له نفسي وأمي وأبي؛ فقد كان ﷺ مُشْرَقَ الحياة، كان نبيًّا يمشي تحت الشمس.

٣- يتَّضح من هذا اليوم أن أعمق عباداته ﷺ وأكثرها استغراقًا، هي عبادات السر التي كان يفعلها في بيته وفي سكون الليل، والتي لزمها وداوم عليها حتىٰ لقي ربه.

وتلك دلالة من دلالات النبوة؛ إذ لا يمكن أن يكون هذا التبتُّل المستغرق المنتظم، والذي استمر عليه عمره كله، صنيعًا مُدَّعًى ولا مُتَقَوَّلًا

-وحاشاه ﷺ- لكنه دلالة علىٰ يقين صادق وإيمان عميق بما يقوله ﷺ ويبلِّغه.

٤- يلفت نظرَك إلىٰ حد الإدهاش أن هذا النبيَّ الذي تلقىٰ بشائر الله له أنه قد غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، هو أكثرُ الناس استغفارًا؛ فهو يَستقبل صَبِيحةَ كل يوم بالاستغفار مائة مرة، ويُعَدُّ له في المجلس الواحد أكثر من مائة مرة: «**أستغفر الله، وأتوب إليه**». ثم يستغفر ربَّه بضراعة وخشوع في صلاته الليلية: (**اللَّهمَّ**) **اغفرْ لي ما قدَّمتُ، وما أخرتُ، وما أسررتُ، وما أعلنتُ، وما أنت أعلمُ به منِّي، أنتَ المقدِّم، وأنت المؤخِّر، لا إله إلا أنت**».

يستغفرُ هذا الاستغفار، وهو الذي غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، وهو المعصوم أن يقارف ذنبًا أو يكسب إثمًا، ماذا نقول نحن؟! أوقات حياتنا لا تكاد تفلت من وقوع في خطأ، أو مقارفة لخطيئة، اللهم غُفْرًا.

٥- يُلَاحظ لَهَجُ النبيِّ ﷺ بالذِّكر؛ بحيث تستشعر أن هذا النبي الكريم يعيش حالة من الحب والشوق لله ﷻ، وكأنه يتراءىٰ جلالَ ربه، فلا يفتُر لسانه عن ذكره، فهو أول ما ينطق به إذا استيقظ، وآخر ما تتحرَّك به شفتاه إذا نام، يستقبل بالذكر صباحات نهاره، ومساءات ليله، ولا يزال لسانه رطْبًا بذكر الله فيما بين ذلك كله، إنه الاستحضار العميق لمعاني العبودية والحب لله ﷻ.

٦- نلاحظ تبكير النبي ﷺ إلىٰ أداء الصلوات في أول وقتها، إلا العشاء، فربما تراخىٰ فيها قليلًا.

٧- حديثُ النبيِّ ﷺ إلىٰ أصحابه يكون عقب الصلوات، فكثيرًا ما يكون بعد الفجر والظهر؛ لأن الناسَ في حال نشاط وراحة، فهاتان

الصلاتان مسبوقتان بنوم الليل وقيلولة الضحىٰ، ويتحدَّث نادرًا بعد العصر والعشاء؛ لأن الناسَ في حال كلال وحاجة إلىٰ الراحة، ولم يُنقل أنه تحدَّث بعد المغرب؛ لأن الناس بعدها بحاجة إلىٰ عشائهم؛ فلذا يبادر بها في أول وقتها، ولا يطيل القراءة فيها، ولا يتحدَّث بعدها.

٨- التوازن في أداء الحقوق، والتوازن في استيعاب مناشط الحياة؛ فأداؤه لعباداته، وبلاغه لرسالاته، وقيامه بحقوق أهله، وعشرته لأصحابه، ومراعاة حق نفسه، وغير ذلك من متطلباته؛ كل ذلك يسير متوازيًا متوازنًا، من غير أن ترىٰ تقصيرًا في حقٍّ أو إخلالًا بواجب، وإنما الاستيعاب المتوازن للحقوق الخاصة والعامة، بحيث ترىٰ في حياته التطبيق العملي لوَصاته يوم قال: «**إنَّ لجسدكَ عليك حقًّا، وإنَّ لعينكَ عليكَ حقًّا، وإنَّ لزوجكَ عليك حقًّا، وإنَّ لضيفكَ عليك حقًّا، وإنَّ لولدكَ عليك حقًّا، وإنَّ لصديقكَ عليك حقًّا**» [البخاري: ١٩٦٨]. وقد أعطىٰ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

٩- يلاحظ أن حياته مزدحمة وحافلة، ولكنها ليست متوتِّرة ولا مرتبكة؛ فبرغم كثرة المشاغل وازدحامها، فإن نفْسَه هادئة مسترخية، فلا تجد اضطرابًا ولا توتُّرًا، وإذا نظرت إليه في حالٍ ظننتَ أن ليس له عمل قبلها ولا بعدها، فحاله في بيته لا تدل علىٰ أن أعباء الحياة ومشاغلها تنتظره في الخارج، وجلوسه مع أصحابه لا يَدُلُّكَ أنه في حال تحفُّز أو قلق لعمل آخر ينتظره؛ فهو مقبل عليهم بكلِّه، مسترخٍ بنفسه معهم، يَسَعُهُم جميعًا حسنُ خلقه، وكأن عمله الوحيد هو هذا المجلس الذي هو فيه، إن هذه حالة استواء نفسي تستوعب الأعمال دون أن تتوتر أو ترتبك.

١٠- نلاحظ أن حياته ﷺ حياة مُرَتَّبة وليست رَتِيبة، فهي مرتَّبة، ولكنها أيضًا مَرِنَة، بحيث تسمح بالتموُّج تبعًا لمقتضيات الحال؛ فليس في حياته فوضىٰ وارتباك، وليس في حياته رَتَابة وصَرَامة، ولكن ترتيب ومرونة؛

فوقت الصلوات وقت محدَّد يرتِّب ما بينها، ومجلسُه ﷺ يمكن أن يطول ويقصر بحسب مستجدات الأحوال، وبذلك تحقَّقت في حياته إيجابيات التنظيم، وتخلَّص من سلبيات الرَّتَابة وحِدِّيَّة الصرامة.

١١- نلاحظ في حياته ﷺ عفوية الحياة وبساطتها، فحياته ﷺ بعيدة عن التواقر المتكلَّف والجدية الصارمة.

ولكن للعفوية والبساطة حضورها، فهو الذي يبتهج مع البهجة، ويأنس مع الأُنس، ويتوثَّب في نشوة الفرح، حتىٰ يسقط رداؤه ليتلقَّىٰ حبيباتً جاء بعد طول غياب، ويسير في طريقه ثم يحيد إلىٰ شاب يسلخ شاة، فحسرِ عن ذراعه؛ ليُرِيَه كيف يُحْسِنُ السَّلْخ، ويمرُّ برجل يطبخ لحمًا في بُرْمة، فيقول: «**إن كانت نضجت فأطعمنا**».

إن هذه العَفَويَّة في التعامل مع الناس حَطَّمت كل الحواجز، بحيث أفضىٰ إليهم بقلبه، وأفْضوْا بقلوبهم إليه، وشعروا أنهم مع النبي ﷺ أبناءٌ مع أبٍ لهم.

١٢- الأُنْس والبهجة حاضرة في بيته؛ فقد كان في بيته ضَحُوكًا بَسَّامًا، حاضرةً في مجلسه؛ ففيه فُسحة للطُّرْفَة الجميلة والمداعبة المُؤْنِسة، وحاضرةً في حياته، فهو الذي يخرج وينظر إلىٰ الحبشة وهم يلعبون في المسجد، فيستمتع بمنظر لهوهم مؤصِّلًا، ويدعو زوجه لتشاركه أُنْس المنظر، ثم يقول مؤصِّلًا لهذا الهَدْي: «**العبوا بني أَرْفِدة؛ حتىٰ تعلم اليهود والنصارىٰ أن في ديننا سَعة**». لقد كان في دينه سَعة، وفي حياته سَعة للأُنْس والبهجة.

١٣- قوة العلاقة العاطفية الزوجية، وإشباع هذه العاطفة، التي تظهر في مناولة قدح الماء، ومناولة لقمة الطعام، والمؤانسة في الحديث الليلي،

والتعاهد بالزيارة النهارية، والمشاركة في مِهْنة البيت، والتواصل الزوجي الحميم علىٰ فراش الزوجية وتحت لحافها.

١٤- تفهُّمه لفِطَر الناس وحاجاتهم ومشاغلهم، حتىٰ في أدائه للعبادة، فكان أقصر الناس صلاة إذا صلَّىٰ بالناس مع أنه كان أطولهم صلاة إذا صلَّىٰ لنفسه، وكان يدخل الصلاة وهو يريد إطالتها، فيسمع بكاء الصبيِّ فيخفِّفها؛ لِمَا يعلم من وَجْدِ أمه.

١٥- صلاته بالليل هي أعمق صلاته حضورًا واستغراقًا وتلذُّذًا بالمناجاة؛ بل هي حالة من حالات التجلِّي الروحي والاستغراق العبادي.

١٦- يمكن تقسيم فترات النشاط إلىٰ ثلاث فترات:

فترة النشاط والحيوية والصفاء في قيام الليل؛ لأن قيامه للتهجد هو بعد أطول فترة نوم ينامها في نصف الليل الأول، فكأنما كان يستجمع صفو نشاطه لهذا الحال؛ إذ صلاته هي راحته وقُرَّة عينه، ثم بعد الفجر؛ إذ هي تَعقب إغفاءة السحر، فيصلِّي الفجر ويذكر ربه، ثم يجلس لأصحابه وعظًا وتعليمًا وتربية، ثم بعد صلاة الظهر؛ إذ هي تعقب القيلولة، فيصلِّي الظهر ويخطب إن كان قد حدث أمر، أو يجلس لأصحابه يحدِّثهم ويقضي حوائجهم.

١٧- يلاحظ أن الصلوات هي فواصل الأوقات، فالوقت يقسم إلىٰ وحدات زمنية تفصلها الصلوات.

١٨- يمكن تقسيم برنامج اليوم النبوي تقسيمًا تقريبيًا علىٰ النحو التالي:

أ- **الفجر**، وفيه: يستيقظ لصلاة الفجر بعد نومة السَّحَر، فيصلِّي الفجر، ويمكن في مصلَّاه مع أصحابه إلىٰ طلوع الشمس، ثم يقوم بجولة صباحية علىٰ زوجاته، ثم يجلس في أول الضحىٰ مع أصحابه في المسجد، وهذا مجلس ذكر وعلم وتربية، ثم يقوم أحيانًا بزيارات بعد هذا المجلس، فربما زار بُنَيَّاته، أو زار بعض أصحابه، وربما ذهب لقضاء بعض شأنه الخاص.

فإذا تعالىٰ الضحىٰ، فإنه وقت النوم والقيلولة، فيَقِيل قبل صلاة الظهر، وهذه النومة إراحة للبدن، ومَدَد لقيام الليل.

ب- **الظهر**: يستيقظ لصلاة الظهر، فيصلِّي الظهر، فإن كان حدث أمرٌ خطب بعد صلاة الظهر، وأكثرُ خطبه في هذا الوقت، ثم يعود إلىٰ بيته فيصلي السُّنة الراتبة، ثم يخرج فيجلس إلىٰ أصحابه، أو يذهب لقضاء بعض شأنه، فقد كان ما بين الظهر والعصر وقت عمل وقضاء حاجات.

ج- **العصر**: يصلِّي العصر في أول وقتها، ثم يقوم بعد صلاة العصر بجولة مسائية علىٰ زوجاته وربما اجتمعن له في بيت التي هو عندها، وكأنما ما بين العصر والمغرب وقت استرخاء أُسَري في الغالب.

د- **المغرب**: يصلي المغرب في أول وقتها، ثم يتعشَّىٰ، ويبقىٰ في بيته، وهذا هو وقت تناول الوجبة الرئيسية، وهي وجبة العشاء.

هـ- **العشاء**: يصلي العشاء، ثم يعود إلىٰ بيته، فيسمُر مع أهله، وربما ذهبَ في زيارات لبعض الأنصار، أو سَمَر مع أبي بكر وعمرَ في بيت أبي بكر ﷺ؛ للتشاور في شؤون الدولة وقضايا المسلمين، ثم يعود بعد سمره إلىٰ بيته، فينام إلىٰ منتصف الليل، ويستيقظ إذا انتصف الليل ليصلِّي

صلاة الليل، وهو في ذِروة نشاطه بعد أطول نومة، فيستمر في حاله هذه من الصلاة والمناجاة بقدر ثلث الليل، حتىٰ إذا لم يبق إلا سدس الليل عاد إلىٰ فراشه ليستريح ويغفي إغفاءة السَّحَر إلىٰ صلاة الفجر.